دمشق في عصر المماليك

تأليف وترجمة

الدكتور نقولا زياده

أ

ترجمه مؤلف الكتاب
الدكتور نقولا زياده

دمشق
في عصر المماليك

تأليف وترجمة
الدكتور نقولا زيادة

دمشق
في عصر المماليك

مكتبة لبنان

المسهمون في هذا الكتاب

الدكتور نقولا زياده

(المؤلف) نال درجة الدكتوراه من جامعة لنـــدن في عام ١٩٥٠ . وهو الآن استاذ التاريخ العربي الحديث ورئيس دائرة التاريخ والآثار في الجامعة الاميركية في بيروت . وله تسعة عشر مؤلفاً بالعربية وخمسة اخرى بالانجليزية ، الى جانب العديد من المقالات التي كتبها للمجلات العربية والانجليزية ، كما انه اسهم في دائرة المعارف البريطانية بثلاث مواد ودائرة المعارف الاميركية بمادتين .

تمهيد

عرفت دمشق ، في العهد المملوكي ، احـــداثاً هامة ومرت بتجارب كثيرة . والكتاب الذي نقدمه الى القارىء اليوم انما هو عرض لذلك كله .

ومن حسن حظ الذين يتصدون للكتابة عن دمشق في ايام المماليك ان ما كتب عنها كثير . فقد عني بها المؤرخون، وزارها رحالة كثر، وقد دوّن عدد كبير منهم انطباعاتهم ومشاهداتهم، سواء في ذلك العرب والاوروبيون .

والكتاب الذي بين ايدينا وضع اصــلاً بالانجليزية ونشرته مطبعة جامعة اوكلاهوما (بالولايات المتحدة) في « سلسلة مراكز الحضارة » . فلما ارتأت مؤسسة فرنكلين ان ينقل الى العربية فضلنا ان نتوسع بعض الشيء في المختارات المنتقاة من المصادر العربية — كابن كثير وابن تغري بردي وابن جبير وابن بطوطة وغيرهم — كي نضع بين ايدي القارىء العربي نماذج أوفى خاصة

وان الكثير منهـــا فيه من جمال الاسلوب ودقة الوصف ورقة العبارة ما يشرح الصدر ويملأ النفس حبوراً . وهذا هو الفرق الوحيد بين الطبعة الانجليزية والطبعة العربية من هذا الكتاب .

الجامعة الاميركية في بيروت

ربيع ١٩٦٦ **نقولا زياده**

مقدّمة

تضافر الموقع الجغرافي والتاريخ والاسطورة فجعلت من دمشق مدينة عظيمة ؛ ذلك انها تقع على طرف السهل ، ويقع الى شمالها وغربها جبل منيع يعصمها ، وتتحدر نحوها من الغرب المياه الآتية من الينابيع الغزيرة . ومن ثم فما اكثر ما طمع فيها الناس . وقد جذب هذا المكان الانسان اليه لانه يسر له ارضاً للاستثمار ، وماء غزيراً للري والاغتسال وجبلاً يحميه اذا دهمه الخطر . ونمت المجتمعات وتوطدت العلاقات بينها ، فأصبحت دمشق نقطة يلتقي عندها الجيران . فالشعوب التي كانت تقطن شمالي دمشق او شرقها او جنوبها وجدت نفسها ، منذ فجر التاريخ ، تسير على هذه الدروب المؤدية الى دمشق لتبيع منتوجها ولتبتاع حاجاتها . وقد تنوعت الحاجات وازدادت بتطور الحضارة وبسبب توسع الرقعة التي كانت دمشق تمونها ، ومع ذلك ظلت دمشق تزود الراغبين بما يريدون . فالغوطة كانت تنتج انواعاً مختلفة من الخضار والفواكه ، والمناطق التي

تبعد قليلاً كانت تنتج الحبوب ، وكانت الجلود والعظام والقطن ، فيما بعد ، تصلها من اماكن قريبة نسبياً . ولما توسعت العلاقات التجارية صارت بضائع الشرق والغرب ومتاجرهما يتبادلها التجار في اسواق دمشق .

كان ثمة طريق يصل دمشق بحلب ومن ثم بالعراق وآسية الصغرى ، وآخر يربطها بتدمر وبعدها ببغداد وبلاد الشرق النائية ، وثالث يتبعه المسافرون الى درعا جنوباً ومنها يواصلون سيرهم الى الحجاز ، ورابع كان يمر ببحيرة طبرية الى فلسطين ثم مصر ، واخيراً الطريق الذي كان يصل دمشق ببيروت وصيدا على الشاطىء اللبناني – منفذيها الى العالم الغربي .

اذا اقتربت دمشق من الشرق او الشمال او الجنوب ، سواء أكان سفرك على فرس او بالقطار او بالسيارة او بالطائرة فانك تلاحظ ، اذ تراها وترى غوطتها ، الانتقال من الارض الجافة الى الارض المروية ، ومن الصحراء الى المزدرع ، ومن ارض البدو الرحل الى بلاد المجتمعات المستقرة المطمئنة . وانا احس بالسرور الذي تبعثه دمشق في نفسي اكثر ما احس ، حين اقصدها آتياً بالسيارة من الاردن او تدمر ، او بالطائرة من بغداد او الكويت ، وخاصة في فصل الجفاف . عبثاً تحاول العين ان تتقرى بقعة من العشب او شجرة او شجيرة او نبتة :

فاذا وصلت الى دمشق رأيت بساطاً سندسياً من البساتين ممتداً أمامك .

تدعي دمشق انها اقدم مدينة في العالم . وقد تمكنت اريحا من اثبات حقها في هذه الدعوى ، على ان هذه واحة صغيرة اذا قورنت بدمشق ، ونحن نتكلم عن المدن . هذا التاريخ الطويل المعرق في القدم لا يمكن عرضه الآن ، ولكن لا يمكن اهماله اهمالاً تاماً ايضاً .

لفت هذا الموقع الخطير نظر الآراميين اليه فاستقروا هناك في الالف الثالث ق. م. واذ اصبح هؤلاء سادة التجارة الشرقية نمت دمشق بذلك ، واصبحت تقارن بصور وصيدا ، سوقي ابناء عمومتهم الفينيقيين . كان قلب المدينة الآرامية هو التـــل الذي يتوسط دمشق القديمة حيث كان يقوم الهيكل والقصر ، تحيط بهما الاسواق واماكن السكن . وقد بلغت دمشق درجة من القوة يسرت لها ان تترأس حلفاً من امراء سورية وفلسطين استطاع ان يقاوم الهجمات الاشورية بين القرنين الحادي عشر والثامن ق. م. لكن الاشوريين تمكنوا اخيراً من الانقضاض على اعدائهم كالوحوش الكاسرة ، فوقعوا جميعاً فريسة لهم . ومع ان دمشق لم تفقد اهميتها باعتبارها نقطة لالتقاء الطرق التجارية ، فان مكانتها لم تعدُ كونها عاصمة لولاية : وهي المكانة التي ظلت لها في ايام الاشوريين والكلدانيين والفرس والاغارقة

والرومان والبيزنطيين . وقد عرف الرومان لدمشق اهميتها اكثر من الامم التي خلفتهم ، فوسّعوا رقعتها ، وجعلوها جزءاً من خط الدفاع الشرقي . وكان شكل المدينة ، وهو الشكل الذي حافظت عليه مدة طويلة من الزمن ، مستطيلاً .

كان فتح العرب لدمشق سنة ١٥ هـ/٦٣٦ بدءاً لعهد جديد في تاريخ المدينة ، اذ ان الامر لم يقتصر على تبديل في ثقافة السكان ودينهم ولغتهم في دمشق والمنطقة المحيطة بها ، بل ان المدينة كانت بين سنتي ٤١/٦٦١ و١٣٢/٧٥٠ عاصمة الامبراطورية الاموية التي امتدت من نهر السند الى البرانيس . وقد أقام الامويون الابنية الكثيرة فيها ، كما يشهد بذلك القصر الاخضر الذي شاده معاوية مؤسس الدولة . ولكن الاثر المعماري الذي يقوم شاهداً على ما حققه الامويون في البناء هو الجامع الاموي الكبير ، الذي تمركزت حوله حياة دمشق .

ولم يكن التغير الذي اصاب البلاد من حيث الدين تاماً . فقد ظل ثمة مسيحيون يعيشون هناك محافظين على شعائرهم الدينية . ومع ان انطاكية كانت اولاً قاعدة الرئاسة الدينية ، فان دمشق انتزعت ذلك منها فانتقل اليها البطاركة مثل بطاركة الكنيسة الارثوذكسية . وقد كان للمسيحيين في العصور المتوسطة ، كما كان لليهود ، احياؤهم الخاصة في المدينة .

كان القضاء على الدولة الاموية ، وقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢/٧٥٠، ايذاناً بتقلص دور دمشق في الحياة السياسية العامة، واقتصارها على دور ثانوي . الا ان ما في المدينة من الصلابة وما عرف عنها من الحيوية ، مكنا لها ، في هذه الفترة ، حياة مستمرة محترمة وان لم يتح لها ان تتسنم مكان الرياسة . ثم تلا ذلك عهود آل زنكي والايوبيين والمماليك – وسنتحدث عنها فيما بعد .

. . .

ما اسهل ان يكتب تاريخ مدينة ! لكن الامر يختلف مع الاسطورة . فالاخبار الاسطورية يتداخل بعضها في البعض الآخر تداخلاً بعيداً عن المنطق ، بحيث لا يمكن تحريرها . ولكن أهو من الضروري ان تحلّل الاسطورة وتفكك اجزاؤها ؟ الا تفقد كل ما فيها من سحر اذا هي تعرضت للتحليل والتشريح ؟

لقد اجتذبت دمشق الاسطورة فاستقرت فيها ناعمة البال ، وحملت اليها اسماء كثيرة بعضها جاء من عالم القداسة ، والآخر من عالم الوثنية . كان آدم وحواء يقيمان في الجنة حيث الحياة هينة ناعمة هانئة . ولكنهما بسبب عصيانهما امر الله طردا من الفردوس وحرم عليهما دخوله . هذه القصة اعجب بها العرب

(وهم الذين لم يكونوا يعرفـــون سوى الاراضي القفراء على الغالب) اعجاباً كبيراً ، ولم يجدوا سوى دمشق مكاناً يصلح لهذه القصة ، ومن ثم فقد صارت هذه البلدة موطن آدم الاول. ومن حق القارىء ان يذكر ان دمشق لم تكن المكان الوحيد الذي منح هذا الشرف ، الا ان ما يعنينا هنا هو صلة الموضوع بدمشق .

كانت الغيرة تملأ قلوب ذرية ابي البشر على نحو ما تعمل في نفوسنا اليوم . وكان احد ابنيه راعياً بينما انصرف الآخر الى الزراعة . وتقول الاسطورة ان الاخوين قدما القربان لله ، فقبل ثمار الارض التي قدمها هابيل لكنه لم يمسّ قربان قابيل الراعي . فامتلأ قلب قابيل حقداً، فقتل اخاه : وكانت الغيرة هي الباعث على القتل – فقد امتلأ قلب الراعي المحتاج الفقير غيرة من اخيه الثري . كانت الاسطورة بحاجة الى مكان يمكن ان يعيش فيه الراعي والفلاح متقاربين ، على ان يختلف نتاج الواحد عن نتاج الآخر اختلافاً بيناً بحيث يثير الغيرة . وكانت دمشق المكان المناسب . فالغوطة يوحي منظرها بالخصب والثراء ، بينما تمتد الى الشمال والشرق والجنوب منها مراعٍ فقيرة نسبياً . وكان ثمة مكان مرتفع حيث يمكن ان تقدم القرابين ، وحيث تهبط النار المقدسة من السماء لتحرق من القربان ما تقبله القوى العلوية. ومن ثم فقد اصبحت دمشق بيت كل من قابيل وهابيل .

دمشق
في عهد الآراميين
دمشق
في عهد الرومان
التل الأصلي
قاسيون
القلعة
الغوطة
باب شرقي
بالأميال
الصالحية
حارة النصارى
العقيبة
الجامع الأموي الكبير
حارة
اليهود
المزة
دمشق
في القرن الثالث عشر
دمشق
في القرن السادس عشر
دمشق في أوائل القرن العشرين
التل الأصلي
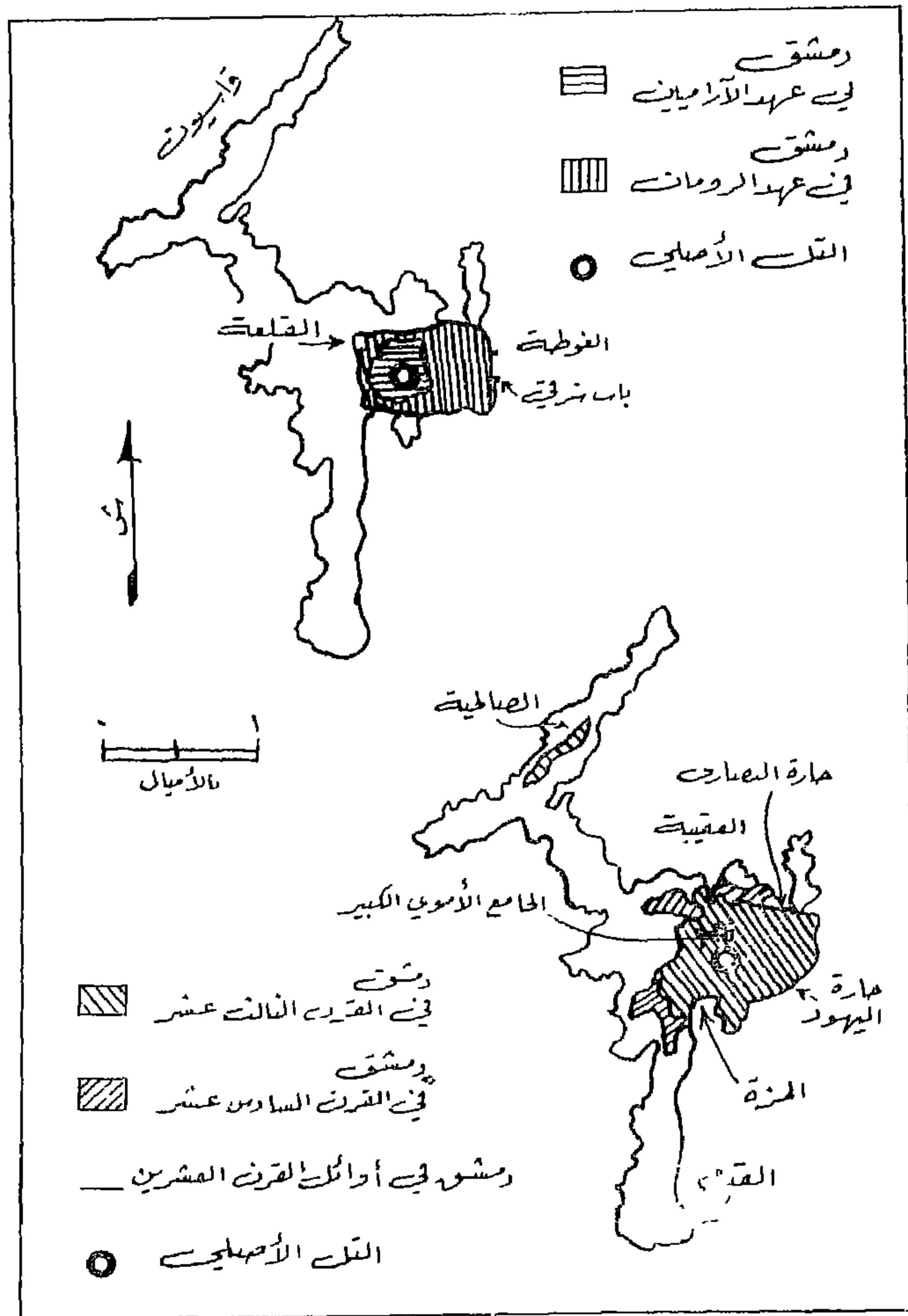
وقد صعق جبل قاسيون ، وهو الجبل الذي تقتعد دمشق سفحه ، بسبب قتل الاخ اخاه ، وندت عنه صرخة انطلقت من غار لا يزال قائماً هناك . وكان دم هابيل البريء لا يزال ظاهراً للعيان في القرن السادس (الثاني عشر) ، على الصخرة حيث اراق اخوه دمه . ومن ثمة فقد كان هناك شاهدان يذكّران الناس دوماً بقسوة الفعلة الشنعاء . وامتلأت نفس آدم بالألم حزناً على ابنه ، واذ لم يكن ثمة اناس يقومون بتعزيته ، فقد هبط الملائكة ، وعلى رأسهم جبريل ، للقيام بدور المعزين . وكان الموضع الذي تلقى فيه آدم التعزية هو كهف جبريل .

كان تارح ، ابو ابرهيم ، يصنع التماثيل للعبادة ، ولكن ابنه ابرهيم ، الذي كان قد عرف الحق ، كان لا يقبل بذلك ، فحطم التماثيل التي كان ابوه يصنعها . ويبدو انه خطر للبعض في وقت ما ان يقيم اهل البر واهل الجهل في الرقعة المذكورة فكان تارح يمثل هؤلاء ، بينما كان ابرهيم يمثل اولئك . وجيء بهما الى دمشق التي اصبحت مسكنهما ، وقر قرارهما في بيت لهية .

وقد نقل السيد المسيح وأمه السيدة العذراء الى دمشق — الى الربوة . فالقرآن الكريم يشير اليهما على انهما استقرا في ربوة ذات قرار معين . وكانت هذه التلة الجميلة في الضاحية الدمشقية المكان الملائم الذي اختاره بعض المفسرين لذلك . الا ان الاسطورة ، التي ارادت توضيح الامر تماماً ، رأت ان تنقل

موطن القديسة حنة ، والدة السيدة العذراء ، من الناصرة الى النيرب على مقربة من دمشق . وكان من الطبيعي ان يذهب يسوع وامه الى هناك ، اذ ان الامر لم يكن اكثر من زيارة الى بيت الاسرة .

ويذهب اكثر المؤرخين الى ان النبي لم تطأ قدماه دمشق ، لكن الاسطورة جعلت زيارته الى تلك الجهات امراً واقعاً ، الا انها كانت حذرة ، فقد اوصلته « القدم » الشريف ، جنوبي دمشق ، حيث كان من الممكن ان يرى الناس آثار قـــدمه المباركة . وقد اراني بعضهم في صغري ما اصر على انه آثار قدم النبي .

وقد تضخمت هذه الاساطير مع الزمن ، وجاءت بعض الاحاديث المنحولة تؤيدها وتزيد مجد دمشق . ومع مر القرون تأصلت هـذه الاحاديث والاساطير وتوثقت صلتها بدمشق وقبلها الناس . وعامة الناس يقبلونها كلها بقطع النظر عن ولائهم الديني او الطائفي .

هذه هي دمشق التي نعتزم ان نروي قصتها في ايام المماليك . انها المدينة التي تركت اثرها في نفوس سكانها وزائريها الى اليوم . لقد تطورت وتبدلت ، وقد خبرت سادة ونفضت عنها سادة — لكن ظل ثمة امران قائمان فيها : روح لا تغلب وسحر لا يبطل .

١ المماليك

في سنة ١١٧١/٥٦٧ قضى صلاح الدين الايوبي ، وزير الخليفة الفاطمي ، على الخلافة الفاطمية وانصرف الى توطيد سلطانه في مصر . وقد كان حذراً في خطوه ، لانه لم يكن في صالحه ان ينفر منه سيده نور الدين في دمشق . الا ان وفاة هذا سنة ١١٧٤/٥٧٠ اتاحت لصلاح الدين فرصة العمل الحر . فزار سورية في وقت لاحق من السنة نفسها ، ثم انتصر في معركة في السنة التالية ، وبذلك خضعت سورية المسلمة لسلطانه . واخذ صلاح الدين يعد العدة لمقارعة الدول اللاتينية ، ثم جاء انتصاره على الصليبيين في معركة حطين ١١٨٧/٥٨٣ فتم له توسيع ممتلكاته . الا ان وفاته في دمشق سنة ١١٩٣/٥٩٠ ادت الى توقف القتال ولو موقتاً .

انشأ صلاح الدين امبراطورية امتدت من الموصل الى جنوب مصر واقام اسرة امتد حكمها الى سنة ١٢٥٠/٦٤٨ (وقد استمرت في بعض انحاء سورية الى العقد السابع او حتى بعد ذلك بقليل) . الا ان خلفاءه وقعوا ، في بعض الفترات ، فريسة للحروب الاهلية والخصومات الاقطاعية ، مما اضعف المملكة

حتى اضطر الكامـــل أن يعقد سنة ١٢٢٩/٦٢٧ معاهدة مع فردريك الثاني منحه بموجبها القدس وبيت لحم والناصرة .

وقد انتهى الامر بالدولة الصلاحية ان ورثها المماليك الذين حكموا مصر وفلسطين ولبنان وسورية من ١٢٥٠/٦٤٨ الى سنة ١٥١٧/٩٢٣ ، حين انتصر عليهم الاتراك العثمانيون واستولوا على المنطقة .

كان المماليك رقيقاً من اجناس متعددة حمله تجار الرقيق من اماكن متباعدة ، وكان المالك لهم يدربهم على فنون الحرب لكي يقوموا على حراسته . وكان الحكم الذي اقاموه حكماً عسكرياً استمر نحو ثلاثة قرون ، كانت السلطة فيه من نصيب الرجل المتصف بالاقدام والشجاعة والجرأة على ان يجمع الى ذلك المقدرة على الدس والخديعة . وكان المماليك يعتبرون السلطان الحاكم على انه الاول بين الاقران ، وكان عليه ان يشدد الرقابة على انصاره ، اذ لم يكن في سلوك المماليك السياسي شيء اسهل عليهم من تبديل الولاء والتبعية .

ولم يقتصر اقتناء الحرس الخاص على السلطان ، بل ان كل امير من المماليك كان له حرسه الخاص ، او جيشه الخاص من الرقيق ، الذي كان ينفق هو عليه . ولما كان للسلطان موارد مالية اكبر ، كان اتباعه وانصاره اكبر عدداً . فاذا عجز عن ارضائهم كان نصيبه العزل او النفي او حتى القتل .

وكان الايوبيون ، اتباعاً لما سار عليه العرف السياسي في الاسلام ، قد ضمنوا لانفسهم موافقة الخليفة العباسي في بغداد ودعواته الصالحات . وقد اتيح للسلطان المملوكي الاول ان يتمتع بهذا الامتياز ، لكن القضاء على الخلافة العباسية على ايدي التتار سنة ٦٥٦/١٢٥٨ جرد المماليك من هذا الشرف . وكان بيبرس (٦٥٨/١٢٦٠ – ٦٧٥/١٢٧٦) يشعر بالحاجة الى خليفة ، فجاء بعباسي ممن نجوا من القتل في بغداد ، وبايعه خليفة في سنة ٦٥٨/١٢٦٠ . وعندها فوض الخليفة ، بوصفه امير المؤمنين ، الى السلطان القيام بمهامّ الدولة وامورها ، بحيث كان منصب الخليفة ، في العهد المملوكي منصباً اسمياً . وكان السلطان يسمى صاحب المملكة وكانت كلمته نافذة نفوذ القانون في طول البلاد وعرضها . وقد ظل المماليك ارستقراطية عسكرية ، فاحتكروا الوظائف العسكرية تاركين لاهل البلاد ، الذين كانوا يختارونهم هم طبعاً ، الوظائف الدينية ووظائف الكتّاب .

وكان على المماليك ، وهم يقومون بتثبيت سلطانهم ، ان يواجهوا خصمين عنيدين : فالصليبيون كانوا لا يزالون يحتلون الاقسام الساحلية من فلسطين ولبنان وسورية ، والتتار كانوا ، بعد ان نجحوا في احتلال بغداد والقضاء على سادتها ، يتجهون غرباً بقضهم وقضيضهم .

وقد قاد المماليك حملات مركزة عنيفة ضد التحصينات

الصليبية المتداعية ، بحيث سقط آخر حصن متـــين في ايدي المماليك سنة ۱۲۹۱/٦۹۰ . وقد وقع العبء الاكبر في احراز هذا النصر على كاهل ثلاثة من السلاطين هم : بيبرس والناصر قلاون (۱۲۷۹/٦۷۸ - ۱۲۹۰/٦۸۹) والملك الاشرف خليل (۱۲۹۰/٦۸۹ - ۱۲۹۳/٦۹۲) . ولا يتسع المجال هنا لبحث تفاصيل هذه الحملات، على اننا نود ان نذكر القارىء بان الحملات كانت عنيفة ، وقد تركت في اعقابها الكثير من الدمار، وخاصة في المدن الساحلية ، مما ادى الى شل المنطقة اجيالاً طويلة .

وكان الخطر المغولي اشد لان جموعهم كانت اكـــبر عدداً وحبّهم للقتال واراقة الدماء لا حد له . وما اكثر ما عاثوا في الارض يهدمون المدن والدساكر ويزهقون الالوف من الارواح ويحملون مهرة الصناع الى اواسط آسية . على ان المماليك وقفوا في وجه الخطر اول الامر ، وفي القرن التاسع (الخامس عشر) بلغت موجة الانسياح المغولي حدها، بالنسبة لسورية على الاقل، فزال خطرها لانها ارتدت بعد ذلك على اعقابها .

وكان اول انكسار مني به المغول على ايدي المماليك في معركة عين جالوت في شمال فلسطين سنة ۱۲٦۰/٦٥۸ . على ان عدداً من الحملات المخربة تمت على ايدي المغول فيما بعد اهمها اثنتان : الاولى غزوة قازان (۱۲۹۹/٦۹۸) التي احتل فيها المدن الشمالية وانتصر على جيش الناصر محمد قرب حمص واحتل

دمشق ، واستباح جنده المدينة حتى قيل ان القتلى فيها بلغوا مائة الف . لكن قازان ترك المدينة سنة ٦٩٩/١٣٠٠ مخلفاً فيها نائباً عنه . وقد خلف لنا ابن كثير ، مؤرخ القرن الثامن (الرابع عشر) ، وصفاً حياً لحملة قازان على دمشق ، قال :

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وستمائة وفيها كانت وقعة قازان ... وقد تواترت الاخبار بقصد التتار بلاد الشام ، وقد خاف الناس من ذلك خوفاً شديداً ، وجفل الناس من بلاد حلب وحماة ، وبلغ كرى الخيل من حماة الى دمشق نحو المائتي درهم ، فلما كان يوم الثلاثاء ثاني المحرم ضربت البشائر بسبب خروج السلطان من مصر قاصداً الشام ، فلما كان يوم الجمعة ثامن ربيع الاول دخل السلطان الى دمشق في مطر شديد ووحل كثير ، ومع هذا خرج الناس لتلقـيه ، وكان قد اقام بغزة قريباً من شهرين ، وذلك لما بلغه قدوم التتار الى الشام ، فتهيأ لذلك وجاء فدخل دمشق فنزل بالطارمة ، وزينت له البلد ، وكثرت له الادعية وكان وقتاً شديداً ، وحالاً صعباً ، وامتلأ البلد من الجافلين النازحين عن بلادهم ، وجلس الاعسر وزير الدولة وطالب العمال واقترضوا اموال الايتام واموال الاسرى لاجل تقوية الجيش ، وخرج السلطان بالجيش من دمشق يوم الاحد سابع عشر ربيع الاول ، ولم يتخلف احـــد من الجيوش ، وخرج معهم خلق كثير من

المتطوعة ، واخذ الناس في الدعاء والقنوت في الصلوات بالجامع وغيره، وتضرعوا واستغاثوا وابتهلوا الى الله بالادعية.

لما وصل السلطان الى وادي الخزندار عند وادي سلمية، فالتقى التتر هناك يوم الاربعاء السابع والعشرين من ربيع الاول فالتقوا معهم فكسروا المسلمين وولّى السلطان هارباً فانا لله وانا اليه راجعون ، وقتل جماعة من الامراء وغيرهم ومن العوام خلق كثير، وفقد في المعركة قاضي قضاة الحنفية ، وقد صبروا وأبلوا بلاء حسناً ، ولكن كان أمر الله قدراً مقدوراً ، فولى المسلمون لا يلوي أحد على أحد ، ثم كانت العاقبة بعد ذلك للمتقين ، غير انه رجعت العساكر على اعقابها للديار المصرية واجتاز كثير منهم على دمشق ، وأهل دمشق في خوف شديد على انفسهم واهليهم وأموالهم، ثم انهم استكانوا واستسلموا للقضاء والقدر . . . .

وفي ليلة الاحد ثاني ربيع الاول كسر المحبوسون بحبس باب الصغير الحبس وخرجوا منه على حمية ، وتفرقوا في البلد ، وكانوا قريباً من مائتي رجل، فنهبوا ما قدروا عليه، وجاءوا الى باب الجابيــة فكسروا اقفال الباب البراني وخرجوا منه الى بر البلد ، فتفرقوا حيث شاءوا لا يقدر احد على ردهم ، وعاثت الحرافشة في ظاهر البلد فكسروا ابواب البساتين وقلعوا من الابواب والشبابيك شيئاً كثيراً،

وباعوا ذلك بأرخص الاثمان ، هذا وسلطان التتار قد قصد دمشق بعد الوقعة ، فاجتمع اعيان البلد والشيخ تقي الدين ابن تيمية في مشهد عليّ واتفقوا على المسير الى قازان لتلقيه، واخذ الامان منه لاهل دمشق ، فتوجهوا يوم الاثنين ثالث ربيع الآخر فاجتمعوا به عند النبك ، وكلّمه الشيخ تقي الدين كلاماً قوياً شديداً فيه مصلحة عظيمة عاد نفعها على المسلمين ولله الحمد . ودخل المسلمون ليلتئذ من جهة قازان فنزلوا بالبدرانية وغلقت ابواب البلد سوى باب توما ، وخطب الخطيب بالجامع يوم الجمعة ، ولم يذكر سلطاناً في خطبته ، وبعد الصلاة قدم الامير اسماعيل ومعه جماعة من الرسل فنزلوا ببستان الظاهر عند الطرن . وحضر الفرمان بالامان وطيف به في البلد ، وقرىء يوم السبت ثامن الشهر بمقصورة الخطابة ، ونثر شيء من الذهب والفضة . وفي ثاني يوم من المناداة بالامان طلبت الخيول والسلاح والاموال المخبأة عند الناس من جهة الدولة، وجلس ديوان الاستخلاص اذ ذاك بالمدرسة القيمرية ، وفي يوم الاثنين عاشر الشهر قدم سيف الدين قبجق المنصوري فنزل في الميدان واقترب جيش التتر وكثر العيث في ظاهر البلد ، وقتل جماعة وغلت الاسعار بالبلد جداً ، وارسل قبجق الى نائب القلعة ليسلمها الى التتار فامتنع ارجواش من ذلك اشد الامتناع ، فجمع له قبجق اعيان البلد فكلموه ايضاً فلم يجبهم الى ذلك، وصمم على ترك تسليمها اليهم وبها عين تطرف، فان الشيخ تقي الدين

ابن تيمية ارسل الى نائب القلعة يقول له ذلك : لو لم يبق فيها الا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك ان استطعت ، وكان في ذلك مصلحة عظيمة لاهل الشام فان الله حفظ لهم هذا الحصن والمعقل الذي جعله الله حرزاً لاهل الشام . . . .

وفي يوم الجمعة رابع عشر ربيع الآخر ُخطب لقازان على منبر دمشق بحضور المغول بالمقصورة، ودعي له على السدة بعد الصلاة وقرىء عليها مرسوم بنيابة قبجق على الشام ، وذهب اليه الاعيان فهنأوه بذلك ، فأظهر الكرامة وانه في تعب عظيم مع التتار ، ونزل شيخ المشايخ محمود بن علي الشيباني بالمدرسة العادلية الكبيرة. وفي يوم السبت النصف من ربيع الآخر شرعت التتار وصاحب سيس في نهب الصالحية ومسجد الاسدية ومسجد خاتون ودار الحديث الاشرفية بها واحترق جامع التوبة بالعقيبية . . . .

ولما نكب دير الحنابلة في ثاني جمادى الاولى قتلوا خلقاً من الرجال واسروا من النساء كثيراً ، ونال قاضي القضاة تقي الدين اذى كثير ، ويقال انهم قتلوا من اهل الصالحية قريباً من اربعمائة ، واسروا نحواً من اربعة آلاف اسير ، ونهبت كتب كثـــيرة من الرباط الناصري والضيائية ، وخزانة ابن البزوري ، وكانت تباع وهي مكتوب عليها الوقفية ، وفعلوا بالمزة مثل ما فعلوا بالصالحية ، وكذلك

بداريا وبغيرها ، وتحصن الناس منهم في الجامع بداريا ففتحوه قسراً وقتلوا منهم خلقاً وسبوا نساءهم واولادهم ، فانا لله وانا اليه راجعون .

وخرج الشيخ ابن تيمية في جماعة من اصحابه يوم الخميس العشرين من ربيع الآخر الى ملك التتار وعاد بعد يومين ولم يتفق اجتماعه به ....

واشتهر بالبلد ان التتار يريدون دخول دمشق فانزعج الناس لذلك وخافوا خوفاً شديداً ، وارادوا الخروج منها والهرب على وجوههم ، وأين الفرار ولات حين مناص ، وقد اخذ من البلد فوق العشرة آلاف فرس ، ثم فرضت اموال كثيرة على البلد موزعة على اهل الاسواق كل سوق بحسبه من المال، فلا قوة الا بالله. وشرع التتار في عمل مجانيق بالجامع ليرموا بها القلعة من صحن الجامع ، وغلّقت ابوابه ونزل التتار في مشاهده يحرسون اخشاب المجانيق، وينهبون ما حوله من الاسواق ، واحرق ارجواش ما حول القلعة من الابنية ، كدار الحديث الاشرفية وغير ذلـــك ، الى حد العادلية الكبيرة ، واحرق دار السعادة لئلا يتمكنوا من محاصرة القلعة من اعاليها، ولزم الناس منازلهم لئلا يسخروا في طمّ الخندق، وكانت الطرقات لا يرى بها احد الا القليل، والجامع لا يصلي فيه احد الا اليسير ، ويوم الجمعة لا يتكامل

فيه الصف الاول وما بعده الا بجهد جهيد ، ومن خرج من منزله في ضرورة يخرج بثياب زيهم ثم يعود سريعاً ، ويظن انه لا يعود الى اهله ، واهل البلد قد اذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، فانا لله وانا اليه راجعون .

والمصادرات والتراسيم والعقوبات عمالة في اكابر أهل البلد ليلاً ونهاراً ، حتى أخذ منهم شيء كثير من الاموال والاوقاف ، كالجامع وغيره ، ثم جاء مرسوم بصيانة الجامع وتوفير اوقافه وصرف ما كان يؤخذ بخزائن السلاح والى الحجاز ، وقرىء ذلك المرسوم بعد صلاة الجمعة بالجامع في تاسع عشر جمادى الاولى ، وفي ذلك اليوم توجه السلطان قازان وترك نوابه بالشام في ستين الف مقاتل نحو بلاد العراق ، وجاء كتابه : انا قد تركنا نوابنا بالشام في ستين الف مقاتل ، وفي عزمنا العود اليها في زمن الخريف ، والدخول الى الديار المصرية وفتحها . وقد اعجزتهم القلعة ان يصلوا الى حجر منها، وخرج سيف الدين قبجق لتوديع قطلو شاه نائب قازان، وسار وراءه وضربت البشائر بالقلعة فرحاً لرحيلهم ، ولم تفتح القلعة ، وأرسل ارجواش ثاني يوم من خروج قبجق القلعية الى الجامع فكسروا اخشاب المنجنيقات المنصوبة به، وعادوا الى القلعة سريعاً سالمين. . . .

قال الشيخ علم الدين البرزالي : ذكر لي الشيخ وجيه الدين

ابن المنجا انه حمل الى خزانة قازان ثلاثة آلاف الف وستمائة الف درهم ، سوى ما تمحق من التراسيم والبراطيل وما أخذ غيرُه من الامراء والوزراء، وان شيخ المشايخ حصل له نحو من ستمائة الف درهم ، والاصيل ابن النصير الطوسي مائة الف ، والصفيّ السخاوي ثمانون الفاً . وعاد سيف الدين قبجق الى دمشق يوم الخميس بعد الظهر خامس عشرين جمادى الاولى ومعه الاليكي وجماعة ، وبين يديه السيوف مسللة وعلى رأسه عصابة . فنزل بالقصر ونودي بالبلد نائبكم قبجق قد جاء فافتحوا دكاكينكم واعملوا معاشكم ولا يغرر احد بنفسه هذا الزمان ، والاسعار في غاية الغلاء والقلة ، قد بلغت الغرارة الى اربعمائة ، واللحم الرطل بنحو العشرة ، والخبز كل رطل بدرهمين ونصف ، والعشرة الدقيق بنحو الاربعين ، والجبن الاوقية بدرهم ، والبيض كل خمسة بدرهم . ثم فرج عنهم في اواخر الشهر، ولما كان في اواخر الشهر نادى قبجق بالبلد ان يخرج الناس الى قراهم وأمر جماعة وانضاف اليه خلق من الاجناد ، وكثرت الاراجيف على بابه ، وعظم شأنه ودقت البشائر بالقلعة وعلى باب قبجق يوم الجمعة رابع جمادى الآخرة، وركب قبجق بالعصائب في البلد والشاويشية بين يديه ، وجهز نحواً من الف فارس نحو خربة اللصوص ، ومشى مشي المـــلوك في الولايات وتأمير الامراء والمراسيم العالية النافذة . . . .

ثم انه ضمن الخمارات ومواضع الزنا من الحانات وغيرها، وجعلت دار ابن جرادة خارج من باب توما خمارة وحانة ايضاً ، وصار له على ذلك في كل يوم الف درهم ، وهي التي دمرته ومحقت آثاره. واخذ اموالاً أخر من اوقاف المدارس وغيرها .

وفي ثامن رجب طلب قبجق القضاة والاعيان فحلفهم على المناصحة للدولة المحمودية — يعني قازان — فحلفوا له ، وفي هذا اليوم خرج الشيخ تقي الدين بن تيمية الى مخيم بولاي فاجتمع به في فكاك من كان معه من اسارى المسلمين ، فاستنقذ كثيراً منهم من ايديهم ، وأقام عنده ثلاثة ايام ثم عاد، ثم راح اليه جماعة من اعيان دمشق ثم عادوا من عنده فشُلِّحوا عند باب شرقي وأخذ ثيابهم وعمائمهم ورجعوا في شرّ حالة، ثم بعث في طلبهم فاختفى اكثرهم وتغيبوا عنه، ونودي بالجامع بعد الصلاة ثالث رجب من جهة نائب القلعة بان العساكر المصرية قادمة الى الشام . وفي عشية يوم السبت رحل بولاي واصحابه من التتار وانشمروا عن دمشق وقد اراح الله منهم وساروا من على عقبة دمر فعاثوا في تلك النواحي فساداً، ولم يأت سابع الشهر وفي حواشي البلد منهم أحد، وقد ازاح الله عز وجل شرهم عن العباد والبلاد. . . .

وتقلق قبجق من البلد . ثم انه خرج منها في جماعة من

رؤسائها واعيانها منهم عز الدين ابن القلانسي ليتلقوا الجيش المصري ، وذلك ان جيش مصر خرج الى الشام في تاسع رجب وجاءت البريدية بذلك ، وبقي البلد ليس به احد ، ونادى ارجواش في البلد احفظوا الاسوار واخرجوا ما كان عندكم من الاسلحة ولا تهملوا الاسوار والابواب، ولا يبيتن احد الا على السور، ومن بات في داره شنق ، فاجتمع الناس على الاسوار لحفظ البلاد ، وكان الشيخ تقي الدين بن تيمية يدور كل ليلة على الاسوار يحرض الناس على الصبر والقتال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط .

وفي يوم الجمعة سابع عشر رجب اعيدت الخطبة بدمشق لصاحب مصر ففرح الناس بذلك ، وكان يخطب لقازان بدمشق وغيرها من بلاد الشام مائة يوم سواء . وفي بكرة يوم الجمعة المذكور دار الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله واصحابه على الخمارات والحانات فكسروا آنية الخمور وشققوا الظروف واراقوا الخمور ، وعزّروا جماعة من اهل الحانات المتخذة لهـــذه الفواحش ، ففرح الناس بذلك . ونودي يوم السبت ثامن عشر رجب بأن تزيّن البلد لقدوم العساكر المصرية ، وفتح باب الفرج مضافاً الى باب النصر يوم الاحد تاسع عشر رجب ، ففرح الناس بذلك وانفرجوا لانهم لم يكونوا يدخلون الا من باب النصر ، وقدم الجيش

الشامي صحبة نائب دمشق جمال الدين آقوش الافرم يوم السبت عاشر شعبان ، وثاني يوم دخل بقية العساكر . . . .

وفي الحادي والعشرين من ذي القعدة استعرض نائب السلطنة اهل الاسواق بين يديه ، وجعـل على كل سوق مُقَـدَّماً وحوله أهل سوقه ، وفي الخميس رابع عشرينه عرضت الاشراف مع نقيبهم نظام الملك الحسيني بالعدد والتجمل الحسن ، وكان يوماً مشهوداً . . . .

ثم دخلت سنة سبعمائة من الهجرة النبوية . . . وفي مستهل صفر وردت الاخبار بقصد التتار بلاد الشام، وانهم عازمون على دخول مصر ، فانزعج الناس لذلك وازدادوا ضعفاً على ضعفهم، وطاشت عقولهم وألبابهم، وشرع الناس في الهرب الى بلاد مصر والكرك والشوبك والحصون المنيعة ، فبلغت الحمارة الى مصر خمسمائة وبيع الجمل بألف والحمار بخمسمائة ، وبيعت الامتعة والثياب والغلات بأرخص الاثمان ، وجلس الشيخ تقي الدين بن تيمية في ثاني صفر بمجلسه في الجامـع وحرض الناس على القتال ، وساق لهم الآيات والاحاديث الواردة في ذلك ، ونهى عن الاسراع في الفرار ، ورغب في انفاق الاموال في الذب عن المسلمين وبلادهم وأموالهم ، وان ما ينفق في اجرة الهرب اذا انفق في سبيل الله كان خيراً ، وأوجب جهاد التتار حتماً في هذه الكرة ، وتابع

المجالس في ذلك . ونودي في البلاد لا يسافر احد الا بمرسوم وورقة ، فتوقف الناس عن السير وسكن جأشهم ، وتحدث الناس بخروج السلطان من القاهرة بالعساكر ودقت البشائر لخروجه ....

وفي اول ربيع الآخر قوي الارجاف بأمر التتار، وجاء الخبر بأنهم قد وصلوا الى البيرة ، ونودي في البلد ان تخرج العامة مع العسكر ، وجاء مرسوم النائب من المرج بذلك ، فاستعرضوا في اثناء الشهر فعرض نحو خمسة آلاف من العامة بالعدة والاسلحة على قدر طاقتهم ، وقنت الخطيب ابن جماعة في الصلوات كلها ، واتبعه أئمة المساجـــد ، وأشاع المرجفون بأن التتار قد وصلوا الى حلب وان نائب حلب تقهقر الى حماة ، ونودي في البـــلد بتطييب قلوب الناس واقبالهم على معايشهم ... .

ثم جاءت الاخبار بأن سلطان مصر رجع عائداً الى مصر بعد ان خرج منها قاصداً الشام ، فكثر الخوف واشتد الحال ، وكثرت الامطار جداً ، وصـــار بالطرقات من الاوحال والسيول ما يحول بين المرء وبين ما يريده من الانتشار في الارض والذهاب فيها، فانا لله وانا اليه راجعون.

وخرج كثير من الناس خفافاً وثقالاً يتحملون بأهليهم

واولادهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، وجعلوا يحملون الصغار في الوحل الشديد والمشقة ، على الدواب والرقاب ، وقد ضعفت الدواب من قلة العلف مع كثرة الامطار والزلق والبرد الشديد والجوع وقلة الشيء فلا حول ولا قوة الا بالله .

واستهل جمادى الاولى والناس على خطة صعبة من الخوف ، وتأخر السلطان واقترب العدو ، وخرج الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله تعالى في مستهل هذا الشهر ، وكان يوم السبت ، الى نائب الشام في المرج فثبتهم وقوّى جأشهم وطيّب قلوبهم ووعدهم النصر والظفر على الاعداء ، وتلا قوله تعالى : « [ذلك] ومن عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ به ثم بُغِيَ عليه لَينصرنَّه اللهُ ان الله لَعَفُوٌّ غَفورٌ » . وبات عند العسكر ليلة الاحد ثم عاد الى دمشق وقد سأله النائب والامراء ان يركب على البريد الى مصر يستحث السلطان على المجيء ، فساق وراء السلطان ، وكان السلطان قد وصل الى الساحل فلم يدركه الا وقد دخل القاهرة وتفارط الحال، ولكنه استحثهم على تجهيز العساكر الى الشام ان كان لهم به حاجة ، وقال لهم فيما قال : ان كنتم اعرضتم عن الشام وحمايته اقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الامن ، ولم يزل بهم حتى جرّدت العساكر الى الشام ، ثم قال لهم : لو قدر انكم لستم حكام الشام ولا

ملوكه واستنصركم اهله وجب عليكم النصر ، فكيف وانتم حكامه وسلاطينه وهم رعايكم وانتم مسئولون عنهم ، وقوّى جأشهم وضمن لهم النصر هذه الكرة ، فخرجوا الى الشام ، فلما تواصلت العساكر الى الشام فرح الناس فرحاً شديداً بعد ان كانوا قد يئسوا من انفسهم واهليهم واموالهم ، ثم قويت الاراجيف بوصول التتار ، وتحقق عود السلطان الى مصر ، ونادى ابن النحاس متولّي البلد في الناس : من قدر على السفر فلا يقعد بدمشق ، فتصايح النساء والولدان ، ورهق الناس ذلة عظيمة وخمدة ، وزُلزلوا زلزالاً شديداً ، وغـُلـّقت الاسواق وتيقنوا ان لا ناصر لهم الا الله عز وجل ، وان نائب الشام لما كان فيه قوة مع السلطان عام أول ، لم يقو على التقاء جيش التتار فكيف به الآن وقد عزم على الهرب ؟ ويقولون : ما بقي اهل دمشق الا طعمة العدو ، ودخل كثير من الناس الى البراري والقفار والمغر بأهاليهم من الكبار والصغار ، ونودي في الناس من كانت نيته الجهاد فليلحق فقد اقترب وصول التتار ، ولم يبق بدمشق من اكابرها الا القليل ....

ورجع الشيخ تقي الدين بن تيمية من الديار المصرية في السابع والعشرين من جمادى الاولى على البريد ، وأقام بقلعة مصر ثمانية ايام يحثهم على الجهاد والخروج الى العدو ، وقد اجتمع بالسلطان والوزير وأعيان الدولة فأجابوه الى الخروج ،

وقد غلت الاسعار بدمشق جداً ، حتى بيع خاروفان بخمسمائة درهم . واشتد الحال ، ثم جاءت الاخبار بأن ملك التتار قد خاض الفرات راجعاً عامه ذلك لضعف جيشه وقلة عددهم ، فطابت النفوس لذلك وسكن الناس ، وعادوا الى منازلهم منشرحين آمنين مستبشرين . ولما جاءت الاخبار بعدم وصول التتار الى الشام في جمادى الآخرة تراجعت انفس الناس اليهم وعاد نائب السلطنة الى دمشق ... .

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعمائة من الهجرة ... وفي ثامن عشر رجب قدمت طائفة كبيرة من جيش المصريين... فقويت القلوب واطمأن كثير من الناس ، ولكن الناس في جفل عظيم من بلاد حلب وحماة وحمص وتلك النواحي وتقهقر الجيش الحلبي والحموي الى حمص ، ثم خافوا ان يدهمهم التتار فجاءوا فنزلوا المرج يوم الاحد خامس شعبان، ووصل التتار الى حمص وبعلبك وعاثوا في تلك الاراضي فساداً ، وقلق الناس قلقاً عظيماً ، وخافوا خوفاً شديداً ، واختبط البلد لتأخر قدوم السلطان ببقية الجيش ، وقال الناس لا طاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بلقاء التتار لكثرتهم ، وانما سبيلهم ان يتأخروا عنهم مرحلة مرحلة . وتحدث الناس بالاراجيف فاجتمع الامراء يوم الاحد المذكور بالميدان وتحالفوا على لقاء العدو ، وشجعوا انفسهم ، ونودي بالبلد ان لا يرحل احد منه ، فسكن الناس وجلس القضاة

بالجامع وحلّفوا جماعة من الفقهاء والعامة على القتال . وتوجه الشيخ تقي الدين بن تيمية الى العسكر الواصل من حماة فاجتمع بهم في القطيعة فأعلمهم بما تحالف عليه الامراء والناس من لقاء العدو ، فأجابوا الى ذلك وحلفوا معهم ، وكان الشيخ تقي الدين بن تيمية يحلف للامراء والناس انكم في هذه الكرة منصورون ، فيقول له الامراء : قل ان شاء الله ، فيقول ان شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً . . . .

ولما كان يوم الرابع والعشرين من شعبان خرجت العساكر الشامية فخيمت على الجسورة من ناحية الكسوة ، ومعهم القضاة، فصار الناس فيهم فريقين : فريق يقولون انما ساروا ليختاروا موضعاً للقتال فان المرج فيه مياه كثيرة فـلا يستطيعون معها القتال ، وقال فريق : انما ساروا لتلك الجهة ليهربوا وليلحقوا بالسلطان. فلما كانت ليلة الخميس ساروا الى ناحية الكسوة فقويت ظنون الناس في هربهم ، وقد وصلت التتار الى قارة ، وقيل انهم وصلوا الى القطيعة ، فانزعج الناس لذلك شديداً ولم يبق حول القرى والحواضر احد . وامتلأت القلعة والبلد وازدحمت المنازل والطرقات ، واضطرب الناس وخرج الشيخ تقي الدين بن تيمية صبيحة يوم الخميس من الشهر المذكور من باب النصر بمشقة كبيرة ، وصحبته جماعة ليشهد القتال بنفسه ومن معه ، فظنوا انه انما خرج هارباً، فحصل اللوم من بعض الناس وقالوا : انت

منعتنا من الجفل وها انت هارب من البلد . فلم يرد عليهم
وبقي البلد ليس فيه حاكم ، وجاس اللصوص والحرافيش
فيه وفي بساتين الناس يخربون وينتهبون ما قدروا عليه ،
ويقطعون المشمش قبل اوانه والباقلاء والقمح وسائر
الخضراوات ، وحيل بين الناس وبين خبر الجيش ،
وانقطعت الطرق الى الكسوة وظهرت الوحشة على البلد
والحواضر ، وليس للناس شغل غير الصعود الى المآذن
ينظرون يميناً وشمالاً ، والى ناحية الكسوة فتارة يقولون :
رأينا غبرة فيخافون ان تكون من التتار ، ويتعجبون من
الجيش مع كثرتهم وجودة عدتهم وعددهم ، أين ذهبوا ؟ فلا
يدرون ما فعل الله بهم ، فانقطعت الآمال وألحّ الناس في
الدعاء والابتهال وفي الصلوات وفي كل حال ، وذلك يوم
الخميس التاسع والعشرين من شعبان ، وكان الناس في خوف
ورعب لا يعبر عنه ، لكن كان الفرج من ذلك قريباً ،
ولكن اكثرهم لا يفلحون .... .

فلما كان آخر هذا اليوم وصل الامير فخر الدين اياس
المرقبي احد امراء دمشق ، فبشر الناس بخير ، هو ان
السلطان قد وصل وقت اجتمعت العساكر المصرية والشامية ،
وقد أرسلني اكشف هل طرَق البلد أحدٌ من التتار ، فوجد
الامر كما يحب لم يطرقها احد منهم ، وذلك ان التتار عرّجوا
من دمشق الى ناحية العساكر المصرية ، ولم يشتغلوا بالبلد ،

وقد قالوا ان غَلَبْنا فان البلد لنا ، وان غُلبنا فلا حاجة لنا به . ونودي بالبلد في تطييب الخواطر ، وان السلطان قد وصل ، فاطمأن الناس وسكنت قلوبهم . . . .

أصبح الناس يوم السبت على ما كانوا عليه من الخوف وضيق الامر ، فرأوا من المآذن سواداً وغبرة من ناحية العسكر والعدو ، فغلب على الظنون ان الوقعة في هذا اليوم ، فابتهلوا الى الله عز وجل بالدعاء في المساجد والبلد ، وطلع النساء والصغار على الاسطحة وكشفوا رؤوسهم وضجّ البلد ضجة عظيمة ، ووقع في ذلك الوقت مطر عظيم غزير ، ثم سكن الناس . فلما كان بعد الظهر قرئت بطاقة بالجامع تتضمن ان في الساعة الثانية من نهار السبت هذا اجتمعت الجيوش الشامية والمصرية مع السلطان في مرج الصفر ، وفيها طلب الدعاء من الناس والامر بحفظ القلعة والتحرز على الاسوار . فدعا الناس في المآذن والبلد ، وانقضى النهار وكان يوماً مزعجاً هائلاً ، وأصبح الناس يوم الاحد يتحدثون بكسر التتار ، وخرج الناس الى ناحية الكسوة فرجعوا ومعهم شيء من المكاسب ، ومعهم رءوس من رءوس التتار ، وصارت كسرة التتار تقوى وتتزايد قليلاً قليلاً حتى اتضحت جملة ، ولكن الناس لما عندهم من شدة الخوف وكثرة التتار لا يصدقون . فلما كان بعد الظهر قرىء كتاب السلطان الى متولي القلعة يخبر فيه باجتماع الجيش

ظهر يوم السبت بشقحب وبالكسوة ، ثم جاءت بطاقة بعد العصر من نائب السلطان جمال الدين آقوش الأفرم الى نائب القلعة مضمونها ان الوقعة كانت من العصر يوم السبت الى الساعة الثانية من يوم الاحد ، وان السيف كان يعمل في رقاب التتار ليلاً ونهاراً ، وانهم هربوا وفروا واعتصموا بالجبال والتلال ، وانه لم يسلم منهم الا القليـــل . فأمسى الناس وقد استقرت خواطرهم وتباشروا لهذا الفتح العظيم والنصر المبارك ، ودقت البشائر بالقلعـــة من اول النهار المذكور ، ونودي بعد الظهر باخراج الجفال من القلعـــة لاجل نزول السلطان بها ، وشرعوا في الخروج [١] .

وكانت الحملة المغولية الثانية على سورية حملة تيمور (تيمورلنك) الذي احتل البلاد سنة ١٤٠٢/٨٠٥ ، وكان يترك في اثره من الخراب والتلف والدمار والقتل كل ما في وسع البشر ان يفعلوه. وقد حل بدمشق ، كما حل بالبلاد الواقعة الى الشمال منها . ثم انسحب بسبب الخطر العثماني الماثل في الشمال . ولم ينقذ البلاد من شره الا وفاته سنة ١٤٠٥/٨٠٨ . وقد حمل تيمور معه الى سمرقند خيرة علماء دمشق واهل الصناعة فيها ، الذين عملوا على تجميل عاصمته ونشر العلوم الاسلامية في قلب آسية . وكما خلف

---

١ — ابن كثير : البداية والنهاية في التاريخ ، ج ١٤ ص ٦ — ٢٥ .

لنا ابن كثير وصف حملة قازان ، فقد ترك لنا ابن تغري بردي وصفاً لحملة تيمور ، قال :

ثم رحل السلطان ببقيّة الامراء والعساكر من الرّيْدانيّة يريد جهة الشام لقتال تيمورلنك ، وسار حتى نزل بغزّة في يوم عشرين من الشهر . . . .

وأما الوالد فانه قال للسلطان وللأمراء : عندي رأي اقوله ، وفيه مصلحة المسلمين وللسلطان ، فقيل له : وما هو ؟ فقال : الرأي ان السلطان لا يتحرّك هو ولا عساكره من مدينة غزّة ، وأنا اتوجّه الى دمشق وأحرّض اهلها على القتال ، واحصّنها – وهي بلدة عظيمة لم تنكب من قديم الزمان ، وبها ما يكفي اهلها من الميرة سنين ، وقد داخل اهلها ايضاً من الخوف ما لا مزيد عليه ، فهم يقاتلون قتال الموت – وتيمور لا يقدر على اخذها منّي بسرعة ، وهو في عسكر كبير الى الغاية لا يطيق المكث بهم بمكان واحد مدّة طويلة . . . .

فاستصوب ذلك جميع الناس ، حتى تيمور عند ما بلغه ذلك بعد اخذه دمشق ، وما بقي الا ان يُرْسَم بذلك ، تكلّم بعض جهّال الامراء مع بعض في السرّ ممّن عنده كمين من الوالد من واقعة أيْتَمُش وتَنَم ، وقال : تقتلوا

رفقته وتسلّموه الشام ، والله ما قَصْدُه الا ان يتوجّه الى دمشق ، ويتّفق مع تيمور ويعود يقاتلنا ، حتى يأخذ منّا ثأر رفقته . . . .

ثم رحـــل جاليش السلطان من غزّة في رابع عشرين شهر ربيع الآخر ، ثم رحل السلطان ببقيّة عسكره من غزّة في سادس عشرينه ، وسار الجميع حتى وافوا دمشق .

وكان دخول السلطان دمشق في يوم الخميس سادس جمادى الاولى ، وكان لدخوله يوم مهول من كثرة صراخ الناس وبكائهم والابتهال الى الله بنصرته ، وطلع السلطان الى قلعة دمشق وأقام بها الى يوم السبت ثامنه ، فنزل من قلعة دمشق وخرج بعساكره الى مخيمه عند قبة يَلْبُغا ظاهر دمشق ، وتهيّأ للقاء تيمور هو بعساكره . . . .

فلما كان وقت الظهر من اليوم المذكور وصل جاليش تيمور من جهة جبل الثلج في نحو الالف فارس ، فبرز اليهم مائة فارس من عسكر السلطان وصدموهم صدمة واحدة ، بدّدوا شملهم وكسروهم اقبح كسرة ، وقتلوا منهم جماعة كبيرة وعادوا . . . .

ثم في يوم السبت نزل تيمور بعساكره على قَطَنا ،

فملأت عساكره الارض كثرة ، وركب طائفة منهم لكشف الخبر ، فوجدوا السلطان والامراء قد تهيئوا للقتال وصفّت العساكر السلطانيّة ، فبرز اليهم التمريّة وصدموهم صدمة هائلة ، وثبت كل من العسكرين ساعة ، فكانت بينهم وقعة انكسر فيها ميسرة السلطان ، وانهزم العسكر الغزّاويّ وغيرهم الى ناحية حوران ، وجرح جماعة ، وحُمل تيمور بنفسه حملة شديدة ليأخذ فيها دمشق ، فدفعته ميمنة السلطان بأسنان الرماح حتى اعادوه الى موقفه .

ونزل كلّ من العسكرين بمعسكره ، وبعث تيمور الى السلطان في طلب الصلح وارسال أطلَمش احد اصحابه اليه ، وأنه هو ايضاً يبعث من عنده من الامراء المقبوض عليهم في وقعة حلب ، فاشار الوالد ودمرداش وقُطلوبُغا الكَرَكي في قبول ذلك ، لما يعرفوا من اختلاف كلمتهم ، لا لضعف عسكرهم ، فلم يقبلوا وأبوا الا القتال .

ثم ارسل تيمور رسولاً آخر في طلب الصّلح ، وكرّر القول ثانياً ، وظهر للأمراء ولجميع العساكر صدق مقالته ، وان ذلك على حقيقته ، فأبى الأمراء ذلك ، هذا والقتال مستمر بين الفريقين في كلّ يوم .

فلما كان ثاني عشر جمادى الآخرة اختفى من امراء مصر والمماليك السلطانية جماعة . . . .

ثم اشيع بدمشق ان الأمراء الذين اختفوا توّجهوا جميعاً الى مصر ليسلطنوا الشيخ لاجين الجركسي احـــد الاجناد البرّانيّة ، فعظم ذلك على مدبّري المملكة لعدم رأيهم ، وكان ذلك عندهم اهم من امر تيمور ، واتفقوا فيما بينهم على اخذ السلطان الملك الناصر جريدة ، وعوده الى الديار المصرية في الليل ، ولم يعلموا بذلك الا جماعة يسيرة ، ولم يكن امر لاجين يستحق ذلك ، بل كان تِمراز نائب الغيبة بمصر يكفي السلطان امرهم « ولٰكِنْ لِيَقْضِيَ اللهُ أمْراً كان مَفْعُولاً » .

فلما كان آخر ليلة الجمعة حادي عشرين جمادى الاولى ركب الامراء وأخذوا السلطان الملك الناصر فرج على حين غفلة ، وساروا به من غير ان يعلم العسكر به من على عَقَبة دُمَّر يريدون الديار المصرية ، وتركوا العساكر والرعيّة من المسلمين غَنَماً بلا راع ، وجدُّوا في السير ليلاً ونهاراً حتى وصلوا الى مدينة صفـــد ، فاستدعوا نائبها الامير تَمُرْبُغا الـمَنجكي واخذوه معهم ، وتلاحق بهم كثير من ارباب الدولة وامرائها ، وسار الجميع حتى ادركوا الامراء الذين ساروا الى مصر — عليهم من الله ما يستحقّوه — بمدينة غزّة ، فكلّموهم فيما فعلوه ، فاعتذروا بعذر غير مقبول في الدنيا والآخرة ، فندم عنـــد ذلك الامراء على الخروج من دمشق حيث لا ينفع الندم ، وقد تركوا دمشق

أكلة لتيمور ، وكانت يوم ذاك احسن مدن الدنيا وأعمرها .

وأما بقية امراء مصر واعيانها من القضاة وغيرهم لما علموا بخروج السلطان من دمشق خرجوا في الحال في اثره طوائف طوائف يريدون اللحاق بالسلطان ، فأخذ غالبهم العشير ، وسلبوهم ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً .

اخبرني غير واحد من اعيان المماليك الظاهرية قالوا : لما بلغنا خروج السلطان ركبنا في الحال ، غير انه لم يعقنا عن اللحاق به الا كثرة السلاح الملقى على الارض بالطريق مما رمتها المماليك السلطانية ليخفّ ذلك عن خيولهم ، فمن كان فرسه ناهضاً خرج ، والا لحقه اصحاب تيمور وأسروه ، فممن اسروه قاضي القضاة صدر الدين المناويّ ومات في الاسر حسبما يأتي ذكره في الوفيات. وتتابع دخول المنقطعين من المماليك السلطانية وغيرهم الى القاهرة في اسوأ حال من المشي والعري والجوع ، فرسم السلطان لكل من المماليك السلطانية المذكورين بألف درهم وجامكيّة شهرين .

وأما الامراء فانهم دخلوا الى مصر وليس مع كل أمير سوى مملوك او مملوكين ، وقد تركوا اموالهم وخيولهم وأطلابهم وسائر ما معهم بدمشق ، فانهم خرجوا من دمشق بغتة بغير مواعدة لما بلغهم توجّه السلطان من دمشق، واخذ كل واحد ينجو بنفسه .

وأما العساكر الذين خلـّفوا بدمشق من اهل دمشق وغيرها ، فانه كان اجتمع بها خلائق كثيرة من الحلبيّين والحمويين والحمصيين واهل القرى ممن خرج جافلاً من تيمور.

ولما اصبحوا يوم الجمعة وقد فقدوا السلطان والامراء والنائب غلـّقوا ابواب دمشق ، وركبوا أسوار البلد ، ونادوا بالجهاد ، فتهيّأ اهل دمشق للقتال ، وزحف عليهم تيمور بعساكره ، فقاتله الدمشقيون من اعلى السور اشدّ قتال ، وردّوهم عن السور والخندق ، وأسروا منهم جماعة ممن كان اقتحم باب دمشق ، واخذوا من خيولهم عـــدّة كبيرة ، وقتلوا منهم نحو الالف ، وأدخلوا رءوسهم الى المدينة . وصار امرهم في زيادة فأعيا تيمور أمرهم ، وعلم ان الامر يطول عليه ، فأخذ في مخادعتهم ، وعمل الحيلة في اخذ دمشق منهم .

وبينما اهل دمشق في اشدّ ما يكون من القتال والاجتهاد في تحصين بلدهم ، قدم عليهم رجلان من اصحاب تيمور من تحت السور وصاحا من بعد : « الامير يريد الصلح ، فابعثوا رجلاً عاقلاً حتى يحدّثه الامير في ذلك » . . .

ولما سمع اهل دمشق كلام اصحاب تيمور في الصلح وقع اختيارهم في ارسال قاضي القضاة تقي الدين ابراهيم بن

محمد بن مفلح الحنبلي ، فأرخي من سور دمشق الى الارض ، وتوجه الى تيمور واجتمع به وعاد الى دمشق ، وقد خدعه تيمور بتنميق كلامه ، وتلطّف معه في القول ، وترفق له في الكلام ، وقال له : هذه بلدة الانبياء والصحابة ، وقد أعتقتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة عني وعن اولادي ، ولولا حنقي من سودون نائب دمشق عند قتله لرسولي ما أتيتها ، وقد صار سودون المذكور في قبضتي وفي أسري ، وقد كان الغرض في مجيئي الى هنا ، ولم يبق لي الآن غرض الا العود ، ولكن لا بدّ من اخذ عادتي من التقدمة من الطّقُزات .

وكانت هذه عادته اذا أخذ مدينة صلحاً يخرج اليه اهلها من كل نوع من انواع المأكول والمشروب والدوابّ والملابس والتحف تسعة ، يسمّون ذلك طقزات ، والطقز باللغة التركية : تسعة ، وهذه عادة ملوك التتار الى يومنا هذا .

فلما صار ابن مفلح بدمشق شرع يخذّل الناس عن القتال ويثني على تيمور ودينه وحسن اعتقاده ثناء عظيماً، ويكف اهل دمشق عن قتاله ، فمال معه طائفة من الناس ، وخالفه طائفة اخرى وأبوا الا قتاله ، وباتوا ليلة السبت على ذلك واصبحوا نهار السبت وقد غلب رأي ابن مفلح على من خالفه ، وعزم على اتمام الصلح ، ونادى في الناس : انه من

خالف ذلك قـُتـِل وهـُدر دمه ، فكفّ الناس عن القتال .

وفي الحال قدم رسول تيمور الى مدينة دمشق في طلب الطقزات المذكورة، فبادر ابن مفلح، واستدعى من القضاة والفقهاء والاعيان والتجار ، حَمْلَ ذلك كل احد بحسب حاله ، فشرعوا في ذلك حتى كمل ، وساروا به الى باب النصر ليخرجوا به الى تيمور ، فمنعهم نائب قلعة دمشق من ذلك ، وهدّدهم بحريق المدينة عليهم ان فعلوا ذلك ، فلم يلتفتوا الى قوله ، وقالوا له : انت احكم على قلعتك ، ونحن نحكم على بلدنا. وتركوا باب النصر وتوجهوا، واخرجوا الطقزات المذكورة من السور، وتدلـّى ابن مفلح من السور ايضاً ومعه كثير من اعيان دمشق وغيرهم وساروا الى مخيّم تيمور ، وباتوا به ليلة الاحد ، وعادوا بكرة الاحد ، وقد استقر تيمور بجماعة منهم في عدّة وظائف : ما بين قضاة القضاة ، والوزير ، ومستخرج الاموال ، ونحو ذلك ، معهم فرمان من تيمور لهم ، وهو ورقة فيها تسعة اسطر يتضمن أمان اهل دمشق على انفسهم واهليهم خاصة . فقرىء الفرمان المذكور على منبر جامع بني امية بدمشق ، وفتح من ابواب دمشق باب الصغير فقط ، وقدم امير من امراء تيمور ، جلس فيه ليحفظ البلد ممن يعبر اليها من عساكر تيمور . فمشى ذلك على الشاميّين وفرحوا به ، وأكثر ابن مفلح ومن كان توجـّه معه من اعيان دمشق الثناء

على تيمور وبثّ محاسنه وفضائله ، ودعا العامّة لطاعته وموالاته ، وحثّهم بأسرهم على جمع المال الذي تقرّر لتيمور عليهم ، وهو ألف ألف دينار . وفرض ذلك على الناس كلهم ، فقاموا به من غير مشقّة لكثرة اموالهم . فلما كمل المال حمله ابن مفلح الى تيمور ووضعه بين يديه ، فلما عاينه غضب غضباً شديداً ، ولم يرض به ، وأمر ابن مفلح ومن معه ان يخرجوا عنه ، فأخرجوا من وجهه . ووكل بهم جماعة حتى التزموا بحمل الف تومان ، والتومان عبارة عن عشرة آلاف دينار من الذهب ، الا ان سعر الذهب عندهم يختلف ، وعلى كل حال فيكون جملة ذلك عشرة آلاف ألف دينار ، فالتزموا بها . وعادوا الى البلد ، وفرضوها ثانياً على الناس كلها عن اجرة املاكهم ثلاثة اشهر ، وألزموا كل انسان من ذكر وأنثى حرّ وعبد بعشرة دراهم ، وألزم مباشر كل وقف بحمل مال له جِـرم ، فنزل بالناس باستخراج هذا منهم ثانياً بلاء عظيم ، وعوقب كثير منهم بالضرب ، فغلت الاسعار ، وعزّ وجود الاقوات ، وبلغ المُدُّ القمح – وهو اربعة أقداح – الى اربعين درهماً فضة ، وتعطلت صلاة الجمعة من دمشق فلم تقم بها جمعة الا مرتين ، حتى دعي بها على منابر دمشق للسلطان محمود ولوليّ عهده ابن الامير تيمورلنك ، وكان السلطان محمود مع تيمور آلة، كون عادتهم لا يتسلطن عليهم الا من يكون من ذريّة الملوك . انتهى .

ثم قدم شاه ملك احد امراء تيمور الى مدينة دمشق على انه نائبها من قبل تيمور .

ثم بعد جمعتين منعوا من اقامة الجمعة بدمشق لكثرة غلبة اصحاب تيمور بدمشق ، كل ذلك ونائب القلعة ممتنع بقلعة دمشق ، وأعوان تيمور تحاصره أشد حصار ، حتى سلّمها بعد تسعة وعشرين يوماً ، وقد رمي عليها بمدافع ومكاحل لا تدخل تحت حصر ، يكفيك ان التمريّة من عظم ما أعياهم امر قلعة دمشق بنوا تجاه القلعة قلعة من خشب ، فعند فراغهم من بنائها وأرادوا طلوعها ليقاتلوا من أعلاها من هو بالقلعة ، رمى اهـــل قلعة دمشق نفطاً فأحرقوها عن آخرها ، فأنشأوا قلعة ثانية أعظم من الاولى وطلعوا عليها وقاتلوا اهل القلعة .

هذا وليس بالقلعة المذكورة من المقاتلة الا نفر يسير دون الاربعين نفراً ، وطال عليهم الامر ، ويئسوا من النجدة ، وطلبوا الامان ، وسلّموها بالامان . . . .

ولما تكامل حصول المال الذي هو ألف تومان ، أخذه ابن مفلح وحمله الى تيمور ، فقال تيمور لابن مفلح واصحابه : هذا المال بحسابنا انما هو يسوي ثلاثة آلاف ألف دينار ، وقد بقي عليكم سبعة آلاف ألف دينار ، وظهر لي انكم عجزتم .

وكان تيمور لما اتفق اولاً مع ابن مفلح على ألف ألف دينار يكون ذلك على اهل دمشق خاصة ، والذي تركته العساكر المصرية من السلاح والاموال يكون لتيمور، فخرج اليه ابن مفلح بأموال اهل مصر جميعها ، فلما صارت كلها اليه وعلم انه استولى على امــوال المصريين ألزمهم باخراج اموال الذين فرّوا من دمشق ، فسارعوا ايضاً الى حمــل ذلك كله ، وتدافعوا عنده حتى خلص المال جميعه ، فلما كمل ذلك ألزمهم ان يخرجوا اليه جميع ما في البلد من السلاح جليلها وحقيرها ، فتتبّعوا ذلك واخرجوه له حتى لم يبق بها من السلاح شيء . فلما فرغ ذلك كله قبض على ابن مفلح ورفقته ، وألزمهم ان يكتبوا له جميع خطط دمشق وحاراتها وسككها . فكتبوا ذلك ودفعوه اليه ، ففرّقه على امرائه ، وقسم البلد بينهم ، فساروا اليهــا بمماليكهم وحواشيهم ، ونزل كل امير في قسمه وطلب من فيه ، وطالبهم بالاموال ، فحينئذ حلّ بأهل دمشق من البلاء ما لا يوصف، وأجري عليهم انواع العذاب من الضرب والعصر والاحراق بالنار ، والتعليق منكوساً ، وغمّ الانف بخرقة فيها تراب ناعم كلما تنفس دخل في انفه حتى تكاد نفسه تزهق ، فكان الرجل اذا أشرف على الهلاك يُخَلّى عنه حتى يستريح ، ثم تعاد عليه العقوبة انواعاً ، فكان المعاقب يحسد رفيقه الذي هلك تحت العقوبة على الموت ، ويقول : ليتني أموت واستريح مما انا فيه . ومع هذا كله تؤخــذ

نساؤه وبناته واولاده الذكور، وتقسم جميعهم على أصحاب ذلك الامير ، فيشاهد الرجل المعذب امرأته او بنته وهي توطأ ، وولده وهو يلاط به ، يصرخ هو من ألم العذاب ، والبنت والولد يصرخان من ازالة البكارة واللواط ، وكل ذلك من غير تستّر في النهار بحضرة الملأ من الناس . ورأى اهل دمشق انواعاً من العذاب لم يسمع بمثلها ، منها انهم كانوا يأخذون الرجل فتشدّ رأسه بحبل ويلويه حتى يغوص في رأسه ، ومنهم من كان يضع الحبل بكتفي الرجل ويلويه بعصاه حتى تنخلع الكتفان ، ومنهم من كان يربط ابهام يدي المعذّب من وراء ظهره ثم يلقيه على ظهره ويذرّ في منخريه الرماد مسحوقاً، فيقرّ على ما عنده شيئاً بعد شيء، حتى اذا فرغ ما عنده لا يصدّقه صاحبه على ذلك ، فلا يزال يكرّر عليه العذاب حتى يموت ، ويعاقب ميّتاً مخافة ان يتماوت . ومنهم من كان يعلق المعـــذب بابهام يديه في سقف الدار يشعل النار تحته ، ويطول تعليقه ، فربما يسقط فيها ، فيسحب من النار ويلقوه على الارض حتى يفيق ، ثم يعلقه ثانياً .

واستمر هذا البلاء والعذاب بأهل دمشق تسعة عشر يوماً ، آخرها يوم الثلاثاء ثامن عشرين شهر رجب من سنة ثلاث وثمانمائة ، فهلك في هذه المدة بدمشق بالعقوبة والجوع خلق لا يعلم عددهم الا الله تعالى .

فلما علمت امراء تيمور انه لم يبق بالمدينة شيء خرجوا الى تيمور ، فسألهم : هـــل بقي لكم تعلّق في دمشق ؟ فقالوا : لا ، فأنعم عند ذلك بمدينة دمشق على اتباع الامراء فدخلوها يوم الاربعاء آخر رجب ، ومعهم سيوف مسلولة مشهورة وهم مشاة ، فنهبوا ما قدروا عليـــه من آلات الدور وغيرها ، وسبوا نساء دمشق بأجمعهنّ ، وساقوا الاولاد والرجال ، وتركوا من الصغار من عمره خمس سنين فما دونها ، وساقوا الجميع مربوطين في الحبال .

ثم طرحوا النار في المنازل والدور والمساجد ، وكان يوم عاصف الريح ، فعمّ الحريق جميع البلد حتى صار لهيب النار يكاد ان يرتفع الى السحاب ، وعملت النار في البلد ثلاثة ايام بلياليها آخرها يوم الجمعة .

وكان تيمور – لعنه الله – سار من دمشق في يوم السبت ثالث شهر شعبان بعد ما أقام على دمشق ثمانين يوماً ، وقد احترقت كلها وسقطت سقوف جامع بني امية من الحريق ، وزالت ابوابه وتفطّر رخامه ، ولم يبق غير جُدُرِه قائمة . وذهبت مساجـــد دمشق ودورها وقياسرها وحمّاماتها وصارت أطلالاً بالية ورسوماً خالية ، ولم يبق بها [دابة تدب] الا اطفال يتجاوز عددهم [آلاف] فيهم من مات ، وفيهم من سيموت من الجوع » [1] .

---

١ – ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في مـــلوك مصر والقاهرة ، ج ١٢ ص ٢٣٠ – ٢٤٨ .

وقد قاد المماليك حملات على معاقل الشيعة في سورية ومعاقل الموارنة في لبنان ، كما انهم قاموا بحملات ضد ارمينية .

كانت منطقة الشرق الادنى (الاوسط) في اواخر القرن التاسع (الخامس عشر) والعاشر (السادس عشر) يتوزعها ثلاث قوى — الفرس والاتراك والمماليك . وكان المماليك قد بلغت دولتهم من الكبر عتياً ، وكان الفرس بعيدين عن الجناح الغربي للهلال الخصيب ، لكن الاتراك كان فيهم نشاط وقدرة وكانت لهم رغبة في القتال ، فلم يلبث سليم الاول ان قاد جيوشه ضد السلطان الغوري ، الذي انهزم وقتل في معركة مرج دابق قرب حلب سنة ٩٢٢/١٥١٦ ، واستولى الاتراك بذلك على سورية ولبنان وفلسطين . وكان من سوء حظ طومان باي، خليفة الغوري ، ان انهزم هو الآخر قرب القاهرة سنة ٩٢٣/١٥١٧ ، فسقطت مصر ايضاً في ايدي العثمانيين . وبذلك زالت دولة المماليك .

كان المماليك قد تعرفوا الى استعمال البارود في العقد السابع من القرن الثامن (الرابع عشر) ، وفي القرن التاسع (الخامس عشر) كانوا يصنعون الاسلحة النارية على رواية ابن تغري بردي . لكن سلاطين المماليك قصروا استعمال المدافع على الحصون ، ولم يدخلوا بها المعارك . ويبدو ان استعمال المدافع لاغراض الحصار والدفاع لم يقتض تبديلاً جذرياً في تنظيم الجند والجيش ، الذي

كان قوامه اصلاً الرقيق المدرّب عـــلى استعمال السيف ثم الغدارة . ومثل هذا الجيش ما كان يتسع للمدافع واعمالها ، كما ان المماليك لم يكونوا مهيئين ، لا نفسياً ولا اجتماعياً ، لتبديل نظامهم العسكري تبعاً لحاجات الاسلحة الجديدة .

وقد ادرك سلاطين المماليك المتأخرون الخطر العثماني الرابض في الشمال ، واخذوا يشجعون صنع المدافع . وقد خلف لنا ابن تغري بردي وصفاً للمدافع ولتجربتها يرجع الى ايام خشقدم ، جاء فيه قوله :

وفي يوم الثلاثاء رابع عشره رسم السلطان بتصريخ المدفع السلطانيّ الذي سبكه للسلطان الاستاذ ابراهيم الحلبيّ بقلعة الجبل ، وصُرِّخ بين يدي السلطان في اواخر رمضان من تحت القلعة الى جهة الجبل الاحمر غير مرّة ثمّ نقل الى ذيل الجبل الاحمر بالقرب من قبّة النصر تجاه ظهر زاوية الشيخ عليّ كهنبوش خارج القاهرة ، ووضع على صورة عالية ووضع رجل المدفع نحو الجبل المذكور وفمه الى جهة خانقاة سرياقوس . وصُرِّخ هناك في يوم الخميس تاسع هذا الشهر مرتين في الملأ من الناس بحضرة جماعة من امراء الالوف واعيان الدولة وقيس مسافة سقوط حجر المدفع المذكور فجاء اربعة آلاف ذراع وستمائة ذراع وعشرين ذراعاً بالذراع الجديد ، وكان في المرّة التي صرّخ فيها بين يدي

السلطان لم يقدر احد على قياسه لانه كان صرّخ نحو الجبل ولم تعلم مسافة سقوطه . ولم احضر انا هذا القياس الثاني ولا نقل اليّ من ثقة بل سمعته من افواه الناس وفيه اختلاف من زيادة ونقص . وقد سألني السلطان عن امره ومسافة سقوط حجر المدفع فعرّفته انـّني لم احرّره فسألني ان احرّره في المرّة الثالثة فقلت له لا اعلم زنة المدفع ولا زنة حجره ولا زنة باروده . فاملى علي جميع ذلك وغيره من لفظه حسبما تقف عليه ان شاء الله في هذا المحلّ فتأهّبت لذلك . فلمّا كان يوم الثلاثاء هذا وصرّخ المدفع ثالث مرّة من مكانه المذكور فكان سقوط حجره الثاني تجاه مسجد التبن من المطرية وهو ابعد مسافة من الحجر الاول . وتوليت انا ومن اثق به قياس هذه المسافة بالضبط والتحرير الزائد فكان طول ذلك ٥٦٤٨ ذراعاً وكسراً بالذراع الجديد ... وهذا شيء من النوادر الغريبة التي لم نعهدها ولا سمعنا بمثلها في سالف الاعصار . فتعجّبت الناس من امر هذا المدفع غاية العجب وكان لتصريخه يوم مشهود من كثرة الخلائق وبالله لولا انـّني شاهدت ذلـــك ما اثبتـّه في تاريخي لغرابة ما شاهدته من عظيم امره وكل ذلك بسعادة السلطان خلـّد الله ملكه . والذي اعتبرته من امر هذا المدفع المذكور من املاء السلطان ومباشرتي بنفسي انّ طوله ١٥ شبراً وبالذراع ٥ ٣/٤ ذراع ووسع فوهته ٣ ٣/٤ ذراع دوراً وسمكه نحو من ثلث ذراع . وهو قطعة واحـدة مضلـّع مشرّف حلو

الشكل . وامّا زنته فمائة وسبعون قنطاراً بالمصريّ، وزنة حجره المرمّى به اربعة قناطير بالمصريّ وزنة بارودِه سبعة وثلاثون رطلاً بالمصريّ ايضاً [1] .

لقد واجه الغوري الخطر العثماني بنفسه، وامر بزيادة المصنوع من المدافع، لكنه قصرها على حاجات الدفاع والحصار. ورغبة منه في ان يساوي بين جنوده والجنود العثمانيين احيى الفروسية، بحيث يتاح لجنوده التدرب الجيد . وادرك ان الجند العثماني كان يعتمد الاسلحة النارية ، فشد ازر جنوده بادخال البنادق في تسليحهم . وقد كان هؤلاء جنوداً من مستوى اجتماعي دون مستوى الجندي العادي ، وكثيرون منهم كانوا عبيداً . لكن الذي لم يدركه الغوري ، او لم يكن بامكانه ان يدركه ، هو ان الجندي العثماني كانت تحرسه المدافع في الميدان والمعركة وتحمي تقدمه . لذلك لمـــا اطبقت جيوش سليم الاول في مرج دابق (قرب حلب) على جنود الغوري ، لم يكن هؤلاء كفؤاً لآلات النار ، مع انهم قاتلوا بشجاعة وبأس شديدين . وقد كان انكسار المماليك هناك، كما كان انكسارهم قرب القاهرة، يرجع، الى درجة كبيرة ، الى انهم لم يتنبهوا الى معنى التغيير الكبير الذي نشأ عن استعمال المدفع في المعركة بالنسبة الى الجند . وقد

---

١ – ابن تغري بردي : حوادث الدهور في مـــدى الايام والشهور (كاليفورنيا ١٩٣٢) ، ج ٣ ص ٤٧٤ – ٤٧٦ .

كان الانتصار العثماني ، بالاضافة الى العوامل الاخرى ، انتصاراً للاساليب والاسلحة الجديدة .

كان المماليك شديدي العناية بالعمارة ، كما تشهد بذلك آثار عمارتهم التي تزين القاهرة وغيرها من المدن . وكانوا يعنون بالمدارس وقد شجعوا التعليم اكثر مما كان منتظراً من جماعة لها مثل تجربتهم ومهنتهم . وقد كانت المنطقة التي وقعت تحت نفوذهم ، كما كانت لقرون خلت ، ملتقى التجارة ، وبذلك وفرت لاطماع المماليك حصة كبيرة من الفوائد التجارية . الا ان المماليك لم يتيحوا لفلاحي سورية وفلسطين الوقت ولا التشجيع اللازمين لتطوير نشاطهم الزراعي الى غايته . ومن ثم فانه لما تحولت الطرق التجــارية الى جنوب افريقية في القرن التاسع (الخامس عشر) ، لم يكن للمماليك ما يمكن ان يعتمدوا عليه لسد حاجاتهم ، وبذلك نال السكان الكثير من المظالم .

يضاف الى ذلك ان المنطقة اصابها وبأ في سلطنة برسباي (٨٢٥/١٤٢٢ – ٨٤٢/١٤٣٨) . ومع انه لم يبلغ في الشدة ما بلغه الوبأ الاسود الذي عرفته اوروبة ، فقد بلغ من السوء حداً انه اثر في التكوين الاجتماعي والاقتصادي في البلاد المعنية . وقد خلف لنا ابن تغري بردي ، وهو في مقدمة اخباريي الفترة ، وصفاً حياً للوبأ اذ قال انه بدأ في حلب ثم انتشر جنوباً عبر بلاد الشام كلها . وقد كانت نكبة بلاد صفد والقدس والكرك

ونابلس كبيرة جداً ، وحتى العربان في الصحراء اصيبوا به . ولم تنج منه سوى امرأة واحدة عجوز في جنين ، وذلك لانها هربت . ومثل ذلك وقع في الرملة وغيرها من الاماكن ... وقد توفي خمسمائة شخص في يوم واحـــد في حلب ، وخسرت دمشق ١٢٠٠ نسمة في رجب من عـــام ٨٤٩ / تشرين الاول عام ١٤٤٥ .

كانت المنطقة التي تشمل اليوم سورية ولبنان وفلسطين والاردن في ايام المماليـــك ، مقسمة الى ست ولايات تسمى واحدتها مملكة . وكانت مملكة دمشق اوسعها اذ شملت اواسط سورية والجزء الاكبر من فلسطين والمنطقة الممتدة شرقي الاردن . وحتى بعض المناطق اللبنانية كانت تتبع نائب السلطنة فيها . وكانت الادارة مركزية حتى ان الامور الطفيفة كان لا بد من الرجوع بشأنها الى دمشق .

ونحن اذا نظرنا الى المسألة من الناحية العامة وجدنا انه كان ثمة ثلاثة انواع من اصحاب الوظائف المسؤولين عن شؤون الولاية باشراف نائب السلطنة . وكان لكل من هذه الفئات واجبات تقوم بها ومنها اشتقت تسميتها . وقد كان اصحاب السيوف يحتـــلون أعلى الرتب ، ومنهم امراء الجند واصحاب الشرطة ونظار الاعشار واصحاب البريد ، وجميعهم ، دون استثناء ، كانوا من الارستقراطية العسكرية المملوكية . وكان

يليهم اصحاب الوظائف الديوانية وكانت وظائفهم مدنية ، اذ كان عليهم ان يقوموا بحفظ القيود والسجلات لاصحاب السيوف المتقدم ذكرهم . وقد كان بعض هؤلاء من المماليك ، لكن اهل البلاد كان يسمح لهم بتولي بعض هذه الوظائف . امـــا الفئة الثالثة ، ولم تكن اقل الفئات اهمية ، فهي اصحاب الوظائف الدينية ، وكان يوكل اليهم اقامة العدل حسب الشريعة الغراء والنظر في الاسواق والاشراف على التداريس والزوايا والمساجد والبيمارستانات . وقد كان هؤلاء يرجعون الى نائب السلطنة ، باستثناء ناظر القلعة وقاضي القضاة . ذلك ان السلطان لم يكن يثق بنوابه ، فكان لقلعة دمشق (وحلب ايضاً) حامية خاصة يعيّن السلطان اميرها من القاهرة ويكون مسؤولاً تجاهه .

ان النظر في القضاء كان دوماً موضع رعاية خاصة في الاسلام، وكان يغلب على اصحابه ابتعادهم عن الاهواء التي تعتور الادارة المحلية ، بحيث ان رئيس الدولة كان يحتفظ لنفسه بحق تعيين كبار رجال القضاء . وقد اتبع المماليك هذه السنة . وليس يعني هذا ان القضاة جميعهم كانوا في ايام المماليك بمنأى عن المؤثرات المحلية ، لكنّ هذا التعيين كان عوناً ادبياً لهم . وما اكثر ما وقع الخلاف بين القضاة والولاة ، وكم نجح الولاة في حمل السلطان على عزل القاضي ، الا ان القضاء كان على الاقل يتمتع بهذه الحصانة نظرياً .

وكان الجيش يتألف من نوعين : اهل الحلقة ، وهم الجند النظامي ، وحرس الوالي الخاص . يضاف الى هذين النوعين المتطوعة والرديف الذين يدعون في ايام الحاجة والشدة . وقد قدر عدد الجند الذي كان باستطاعة المماليك جمعه بين ٤٥٠٠٠ و ٦٠٠٠٠ ، وكان يتألف من جميع العناصر التي تزخر بها المنطقة .

كانت موارد المملكة ، شأنها في ذلك شأن الامبراطورية المملوكية ، يدخل في عدادها الخراج والزكاة والجزية والعشور واجور املاك الدولة . وكان السلطان كثيراً ما يلزم الناس بضرائب شاذة تبعاً لرغبته مثل المصادرة التي كان حتى نواب السلطنة يمكنهم القيام بها وبالمطاليب التي قد تهبط على الناس فجأة . اما المصاريف فكانت تشمل نفقات الادارة والجيش والبريد والاهتمام بتنظيف الانهار والترع وبناء الجسور والاسوار .

ويعود سبب استمرار الحياة في دمشق الى وفرة المياه فيها ، لكن الاحداث السياسية هي التي حددت شكل المدينة وحالها . فقد ساد سورية في القرن الخامس (الحادي عشر) اضطراب اشرفت فيه البلاد على الفوضى . فانتشرت الحروب الاهلية والنزاعات الاقطاعية وغزوات البدو بحيث لجأ السكان الى داخل المدن بحثاً عن الامان والطمأنينة . وترتب على ذلك ان الضواحي التي كانت معروفة قبلا اهملها الدمشقيون . وكان الحاكم

السلجوقي يعنى بالاسوار وكان الجامع ملتقى الناس المفضل ، وكانت الاسواق تفي بحاجة الناس غذاء ومنتدى ، وما عدا هذا « فقد بدت المدينة وكأنها مجموعة حارات مستقلة ، لكل حياتها الخاصة بها ، منفصلة عن جارتها . وكانت كل من هذه الحارات كأنها بلدة مصغرة بمسجدها وسقاية الماء فيها وحماماتها وسوقها التي كانت تباع فيها حاجاتها ... وكانت بيوت الحارة الواحدة يوصل اليها بطريق واحد له باب يقفل ليلا » .

وما اكثر ما اضطر اهل دمشق الى ان ينظموا انفسهم للدفاع عن مدينتهم. وكان مثل هذا الامر يتخذ شكل تجمعات حرفية (مهنية) . فقد كان لكل حارة احداثها وعلى رأسهم شيخ يشرف على تنظيمهم . فاذا تعرضت مصلحة المدينة للخطر تقدم الاحداث الى العمل مجتمعين . ومن ثم فقد كانت هذه التجمعات الحرفية تؤدي غرضين : فمن الجهة الواحدة كانت تحمي اعضاءها من المنافسة مهنياً وتحول دون ظلم الحكام لهم . ومن الجهة الاخرى كانت الجماعات هذه تنظم الاحـــداث حرساً للدفاع عن المدينـة . وقد حدث في القرن الخامس (الحادي عشر) ان تم لبني السيوفي رئاسة متوارثة بالاضافة الى مشيخة الاحداث . وفي هذه الحالة كان هذا الشخص « يمثل مصالح المدينة ويدفع عنها الخطر الخارجي ويتوسط بين الناس والوالي ، الذي كثيراً مـــا كان يلجأ الى القلعة ، وكان في

وساطته تدعمه قوة الاحداث » . ولم تعد دمشق في هذه الفترة ذات شخصية متماسكة او عضواً حياً نشيطاً . لقد اصبحت مجموعة من الافراد ذوي المصالح المتعارضة ، بحيث يعنى كل بما ينفعه في دائرته الخاصة به ، مسخراً الظروف جميعها لاغراضه الذاتية ، بقطع النظر عن حاجات جيرانه . لكن دمشق التي كانت ممزقة اجتماعياً وسياسياً كانت نشيطة في اقتصادها وتنعم بشيء من الازدهار .

كان ظهور الزنكيين والايوبيين في القرن السادس (الثاني عشر) مؤذناً بعودة القانون والنظام الى البلاد ، كما ان حكام سورية ، بسبب ضغط الصليبيين عليهم ، اخذوا الامور بعين الجد . ونالت دمشق ، وهي العاصمة ، عناية كبيرة . فحصنت اسوارها وقلعتها جيداً ، ووسعت قلعتها بحيث انها لم تعد المعقل الاخير للحامية المحاصرة فحسب ، بل اصبحت تتسع لسكن السلطان ومخازن الارزاق والذخيرة ودار الضرب والسجن . وكان لها جامعها وحماماتها وأسواقها . وقد قال ابن جبير ، الرحالة المغربي الذي زارها في ايام صلاح الدين ، في وصف القلعة :

ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان ، منحازة في الجهة الغربية من البلد ، وهي بازاء باب الفرَج ، من ابواب البلد . وبها جامع السلطان يجمّع فيه [1] .

---

١ – رحلة ابن جبير (تحقيق الدكتور حسين نصار) ص ٢٧٧ .

وقد ادت اعادة القانون والنظام في القرن السادس (الثاني عشر) الى تحسين الحالة الاقتصادية . وافادت دمشق من ذلك تجارة وصناعة. على ان المدينة لم تتبدل احوالها الداخلية كثيراً، فقد ظلت طرقها ضيقة مزدحمة ، وظلت الحارات اساس الحياة المهنية والحياة الاجتماعية الدينية . الا ان اصحاب المهن وضعوا تحت مراقبة دقيقة . فقد كان هؤلاء ينظر اليهم على انهم سبيل يلجأ اليها الشعب المغلوب على امره للتعبير عن ظلاماته عن طريق التشيع ، الامر الذي كان يعتبر خطراً على الدولة السنية . ولعل اولي الامر كانوا مصيبين في نظرتهم هذه الى اصحاب المهن .

ولم يعد السكان يشعرون بالحاجة الى ضرورة البقاء داخل اسوار دمشق . ومن ثم فقد طرأ على الضواحي تطور جذري ، وهو تطور لم يكن يجاريه الا التطور الاقتصادي في المدينة . وقد استمرت هاتان الظاهرتان في حياة دمشق طوال القرون السابع (الثالث عشر) والثامن (الرابع عشر) والتاسع (الخامس عشر) .

وكان المماليك ادق رقابة على الولايات واشد في فرض القانون والنظام . وقد استمرت دمشق تنمو وتتطور في ظل النظام الجديد في الاتجاه الذي اوجزنا وصفه . وقد كان المماليك يعتبرونها المدينة الاولى بعد القاهرة ومركزاً حربياً هاماً . وقد زادت الضواحي ، وخاصة لارتباطها باسباب الجيش . فمن

ذلك ميدان تحت القلعة الذي كان فيه سوق الخيل والسروج وما الى ذلك من اشغال الجلود . وكان للدباغين ثمة مكان ايضاً . وعلى مقربة من هذا الميدان ، والى الشمال منه ، قام سوق ساروجا الذي نما نمواً عجيباً . اما من حيث مناطق السكن فقد كان اتساع الصالحية في القرنين السابع (الثالث عشر) والثامن (الرابع عشر) خير مثل على التطور والتقدم . لقد كانت بلدة خارج الاسوار . وللدمشقيين غرام قديم بالتنزه في ارباض مدينتهم . وقد اقيمت ، في الفترة التي نعرض لها ، اماكن ثابتة للتنزه والسرور مثل الغوطة والربوة ووادي البنفسج وبين النهرين واليلكي ، وهي اوسعها ذكراً .

ومن اهم صفات المدينة في الفترة المذكورة كثرة المدارس . ولا يعني هذا ان دمشق لم تكن من قبل دار علم، بل ان المدرسة كانت موضع اهتمام خاص ايام آل زنكي والايوبيين والمماليك . فقد رافق ظهور هذه الدول احياء للسنة ونفوذها ، واختفاء للشيعة ، التي كانت قد انتشرت انتشاراً لا بأس به في سورية . وقد كانت المدرسة ، على نحو ما نظمها السلاجقة ، على العموم تحت اشراف الدولة . ثم اصبحت ، في ايام الايوبيين ، اداة لمكافحة الشيعة ودعم الرأي السني الرسمي . وقد بنى الولاة المدارس وشجعوا غيرهم على بنائها . وكانت المدارس دوماً غنية في ما يحبس عليها من اوقاف .

٢ دمشق صلاح الدين وابن جبير

وصل ابن جبير ، الرحالة المغربي المشهور، الى دمشق ضحى (الرابع والعشرين لربيع الاول سنة ٥٨٠) الخامس من تموز (يوليو) سنة ١١٨٤ ، فلما اقترب منها من جهة الشمال وقع نظره على منظر خلاب للمدينة البديعة تدور بها الحدائق الواسعة ذات اللون الاخضر الداكن وسواقيها تلمع في اشعة الشمس . فلما استقرت به الحال وصف الانطباع الحي الذي تركه المنظر في نفسه ، فقال في ذلك ، باسلوبه البليغ :

جنة المشرق ، ومطلع حسنه المؤنق المشرق ، وهي خاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها ، وعروس المدن التي اجتليناها ، قد تحلـّت بأزاهير الرياحين، وتجلـّت في حلل سندسية من البساتين ، وحلـّت من موضوع الحسن بالمكان المكين ، وتزينت في مَنَصّتها اجمل تزيين ، وتشرّفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه صلى الله عليهما منها الى ربوة ذات قرار ومعين ، ظلّ ظليل ، وماء سلسبيل ، تنساب مذانبه انسياب الاراقم بكل سبيل ، ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل ، تتبرّج لناظريها بمجتلى صقيل ، وتناديهم : هلمّوا الى معرّس للحسن ومقيل ، قد سئمت ارضها كثرة المـاء

حتى اشتاقت الى الظمأ ، فتكاد تناديك بها الصمّ الصلاب : « اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب » ، قد احدقت البساتين بها احداق الهالة بالقمر ، واكتنفتها اكتناف الكِمامة للزّهَر ، وامتدّت بشرقيّها غوطتها الخضراء امتداد البصر ، فكل موضع لحظتَه بجهاتها الاربع نضرته اليانعة قيد النظر ، ولله صدق القائلين عنها : « ان كانت الجنة في الارض فدمشق لا شك فيها ، وان كانت في السماء فهي بحيث تُسامتها وتحاذيها » [1] .

لم يكن ابن جبير رحالة فحسب ، بل كان عالماً مسلماً وكان ، قبل هبوطه دمشق ، قد زار مصر والعراق وكان قد ادى فريضة الحج . كان يتنقل مفتح العينين والاذنين ، ويحرص على تلقف اخبار العلم والمدارس والمساجد والزوايا وغير ذلك من نواحي الحياة في الاماكن التي زارها . ونحن اذا رافقنا ابن جبير في زيارته لدمشق ، التي قضى فيها شهرين وبعض الشهر ، فاننا نحصل على صورة للمدينة على ما كانت عليه ايام صلاح الدين الايوبي ، قبل ان يتولى المماليك الامور ويطبقوا القانون والنظام بدقة ، فيشجعوا السكان على السكنى خارج الاسوار . فهو يقول لنا ان المدينة لم تكن واسعة الرقعة :

---

١ — رحلة ابن جبير ، ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .

والبلد ليس بمفرط الكبر ، وهـــو مائل للطول ، وسككه ضيقة مظلمة ، وبناؤه طين وقصب ، طبقات بعضها فوق بعض ، ولذلك ما يسرع الحريق اليه ، وهو كله ثلاث طبقات ، فيحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن ، لانه اكثر بلاد الدنيا خلقاً ، وحسنه كله خارج لا داخل[1] .

واسواق هذه البلدة من احفل اسواق البلاد، واحسنها انتظاماً ، وابدعهـــا وضعاً ، ولا سيما قيسارياتها ، وهي مرتفعات كأنها الفنادق ، مثقّفة كلها بأبواب حديد كأنها ابواب القصور . وكل قيسارية منفردة بضبتها واغلاقهـــا الجديدة . ولها ايضاً سوق ، يعرف بالسوق الكبير ، يتصل من باب الجابية الى باب شرقي[2] .

وقد لفتت المدينة ايضاً نظر بنيامين الططيلي ، الذي زارها سنة ٥٥٨/١١٦٣ وكتب عنها :

ان المدينة كبيرة وجميلة يدور بها سور ويحيط بها ريف جميل يمتد الى نحو خمسة عشر ميلاً في حدائق وبساتين

---

١ — رحلة ابن جبير، ص ٢٧١ .

٢ — المصدر نفسه ، ص ٢٧٨ .

من اغنى ما عرف ، بحيث انه لا مثيل لها على سطح الارض
لا من حيث عددها ولا من حيث جمالها . هنا يجري نهرا
ابانا وفرفر اللذان ينبعان من الجبل التي ترتكز المدينة عليه ،
وابانا يخترق دمشق ، وثمة قساطل تحمل ماءه الى الشوارع
والاسواق . وفيها يجتمع التجار من جميع اقطار الدنيا
حيث يتبادلون السلع على مقياس واسع . وفرفر يمر بالبساتين
والحدائق في الضواحي ويرويها [١] .

ولما كان ابن جبير مسلماً ورعاً تقياً ، فقد ملأ الجامع الاموي
قلبه حبوراً . وقد قضى فيه ساعات وتسلق قبته وعدد جميع
الاماكن والمواقع المباركة فيه . وقد كان الجامع دوماً أروع
معـــالم المدينة ، لذلك فانه حري بنا ان نرافق ابن جبير في
زيارته :

هو من اشهر جوامع الاسلام حسناً ، واتقان بناء ،
وغرابة صنعة ، واحتفال تنميق وتزيين . وشهرته المتعارفة
في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه . ومن عجيب شأنه
انه لا تنسج به العنكبوت ولا تدخله ، ولا تلم به الطـــير
المعروفة بالخطاف . انتدب لبنائه الوليد بن عبد الملك رحمه

---

١ – انظر بنيامين في Early Travels in Palestine. Ed. Th. Wright (London 1848) p. 90.

الله ، ووجّه الى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره باشخاص اثني عشر ألفاً من الصنّاع من بلاده ، وتقدم اليه بالوعيد في ذلك ان توقّف عنه . فامتثل أمره مذعناً ، بعد مراسلة جرت بينهما في ذلك ، مما هو مذكور في كتب التواريخ . فشرع في بنائه ، وبُلغت الغايات في التأنق فيه ، وأنزلت جدره كلها بفصوص من الذهب المعروف بالفسيفساء ، وخلطت بها انواع من الاصبغة الغريبة ، قد مُثّلت اشجاراً، وفُرّعت اغصاناً منظومة بالفصوص، ببدائع من الصنعة الانيقة المعجزة وصف كل واصف ، فجاء يغشّي العيون وميضاً وبصيصاً . . . .

ذرعه في الطول من الشرق الى الغرب مئتا خطوة ، وهما ثلاث مئة ذراع . وذرعه في السعة من القبلة الى الجوف مئة خطوة وخمس وثلاثون خطوة ، وهي مئتا ذراع . فيكون تكسيره من المراجع الغربية اربعة وعشرين مرجعاً . وهو تكسير مسجد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، غير ان الطول في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من القبلة الى الشمال . وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاثة ، مستطيلة من الشرق الى الغرب ، سعة كل بلاط منها ثمان عشرة خطوة ، والخطوة ذراع ونصف، وقد قامت على ثمانية وستين عموداً، منها اربع وخمسون سارية ، وثماني ارجل جصيّة تتخللها ، واثنتان مرخمة ملصقة معها في الجدار الذي يلي الصحن ،

واربع ارجل مرخمة ابدع ترخيم ، مرصعـــة بفصوص من الرخام ملونة ، قـد نظمت خواتيم ، وصورت محاريب واشكالاً غريبة، قائمة في البلاط الاوسط، تقل قبة الرصاص مع القبة التي تلي المحراب ، سعة كل رجل منها ستة عشر شبراً ، وطولها عشرون شبراً ، وبين كل رجل ورجل في الطول سبع عشرة خطوة، وفي العرض ثلاث عشرة خطوة، فيكون دور كل رجل منها اثنين وسبعين شبراً . ويستدير بالصحن بلاط من ثـــلاث جهاته : الشرقية ، والغربية ، والشمالية ، سعته عشر خطا ، وعدد قوائمه سبع واربعون : منها اربع عشر من الجص ، وسائرها سوار . فيكون سعة الصحن – حاشا المسقّف القبـــلي والشمالي – مئة ذراع . وسقف الجامع كله من خارج ألواح رصاص .

وأعظم مـــا في هذا الجامع المبارك ، قبَّة الرصاص المتصلة بالمحراب وسطه ، سامية في الهواء ، عظيمـــة الاستدارة ، قد استقل بها هيكل عظيم ، هو غارب لها ، يتصل من المحراب الى الصحن ، وتحته ثلاث قباب : قبة تتصل بالجدار الذي الى الصحن ، وقبة تتصل بالمحراب ، وقبة تحت قبة الرصاص بينهما. والقبة الرصاصية قد أغصّت الهواء وسطه، فاذا استقبلتها أبصرت منظراً رائعاً، ومرأى هائلاً ، يشبّهه الناس بنسر طائر ، كأن القبـــة رأسه ، والغارب جؤجؤه ، ونصف جدار البلاط عن يمين ، ونصف

الثاني عن شمال ، جناحاه . وسعة هذا الغارب من جهة الصحن ثلاثون خطوة ، فهم يعرفون الموضع من الجامع بالنسر لهذا التشبيه الواقع عليه . ومن اي جهة استقبلت البلد ، ترى القبة في الهواء منيفة على كل علو ، كأنها معلقة من الجو .

والجامع المكرم مائل الى الجهة الشمالية من البلد، وعدد شمسياته الزجاجية المذهبة الملونة اربع وسبعون : منها في القبة التي تحت قبة الرصاص عشر ، وفي القبة المتصلة بالمحراب ، مع ما يليها من الجدار ، اربع عشرة شمسية ، وفي طول الجدار عن يمين المحراب ويساره اربع واربعون ، وفي القبة المتصلة بجدار الصحن ست ، وفي ظهر الجدار الى الصحن سبع واربعون شمسية .

وفي الجامع المكرم ثلاث مقصورات : مقصورة الصحابة رضي الله عنهم ، وهي اول مقصورة وضعت في الاسلام، وضعها معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنهما، وبإزاء محرابها عن يمين مستقبل القبلة باب حديد ، كان يدخل معاوية رضي الله عنه الى المقصورة منه الى المحراب . وبازاء محرابها لجهة اليمين مصلّى ابي الدرداء رضي الله عنه ، وخلفها كانت دار معاوية رضي الله عنه . وهي اليوم سماط عظيم للصفّارين ، يتصل بطول جدار الجامع القبلي ، ولا

سماط احسن منظراً منه ، ولا اكبر طولاً وعرضاً . وخلف هذا السماط على مقربة منه دار الخليل برسمه ، وهي اليوم مسكونة ، وفيهـــا مواضع للكمّادين . وطول المقصورة الصحابية المذكورة اربعة واربعون شبراً ، وعرضها نصف الطول . ويليها لجهة الغرب ، في وسط الجامع ، المقصورة التي احدثت عند اضافة النصف المتخذ كنيسة الى الجامع ، حسبما تقدم ذكره . وفيها منبر الخطبة ، ومحراب الصلاة . وكانت مقصورة الصحابة اولاً في نصف الحظ الاسلامي من الكنيسة ، وكان الجدار حيث أعيد المحراب في المقصورة المحدثة . فلما أعيدت الكنيسة كلها مسجداً ، صـــارت مقصورة الصحابة طرفاً في الجانب الشرقي ، وأحدثت المقصورة الاخرى وسطاً ، حيث كان جدار الجامع قبل الاتصال . وهـــذه المقصورة المحدثة اكبر من الصحابية . وبالجانب الغربي بازاء الجدار مقصورة اخرى ، هي برسم الحنفية ، يجتمعون فيها للتدريس ، وبها يصلـّون . وبازائها زاوية محدقة بالاعواد المشرجبة ، كأنها مقصورة صغيرة . وبالجانب الشرقي زاوية اخرى على هـــذه الصفة ، هي كالمقصورة ، كان وضعها للصلاة فيها احد امراء الدولة التركية ، وهي لاصقة بالجدار الشرقي . وبالجامع المكرم عـــدة زوايا على هذا الترتيب ، يتخذها الطلبة للنسخ ، والدرس ، والانفراد عن ازدحام الناس ، وهي من جملة مرافق الطلبة .

وفي الجدار المتصل بالصحن المحيط بالبلاطات القبلية ، عشرون باباً متصلة بطول الجدار ، قد علتها قِسي جصيّة مخرمة كلها على هيئة الشمسيات ، فتبصر العين من اتصالها اجمل منظر وأحسنه . والبلاط المتصل بالصحن ، المحيط بالبلاطات من ثلاث جهات، على أعمدة . وعلى تلك الاعمدة ابواب مقوّسة ، تقلها أعمدة صغار ، تطيف بالصحن كله . ومنظر هذا الصحن من اجمل المناظر واحسنها ، وفيه مجتمع اهل البلد ، وهو متفرجهم ومتنزههم كل عشيّة تراهم فيه ذاهبين وراجعين ، من شرق الى غرب ، من باب جيرون الى باب البريد : فمنهم من يتحدث مع صاحبه ، ومنهم من يقرأ، لا يزالون على هذه الحال من ذهاب ورجوع، الى انقضاء صلاة العشاء الآخرة ، ثم ينصرفون . ولبعضهم بالغداة مثل ذلك. واكثر الاحتفال انما هو بالعشيّ . فيخيل لمبصر ذلك انها ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم ، لما يرى من احتفال الناس واجتماعهم ، لا يزالون على ذلك كل يوم . واهل البطالة من الناس يسمونهم الحرّاثين .

وللجامع ثلاث صوامع : واحدة في الجانب الغربي ، وهي كالبرج المشيّد ، تحتوي على مساكن متسعة ، وزوايا فسيحة ، راجعة كلها الى اغلاق ، يسكنها اقوام من الغرباء اهل الخير ، والبيت الاعلى منها كان معتكف ابي حامد الغزالي رحمه الله ، ويسكنه اليوم الفقيه الزاهد ابو عبدالله

ابن سعيد ، من اهل قلعة « يحصب » المنسوبة لهم ، وهو قريب لبني سعيد المشتهرين بالدنيا وخدمتها، وثانية بالجانب الغربي على هذه الصفة ، وثالثة بالجانب الشمالي على الباب المعروف بباب الناطفيّين . . . .

وكان هذا الجامع المبارك ، ظاهراً وباطناً ، منزّلاً كله بالفصوص المذهبة ، مزخرفاً بأبدع زخاريف البناء المعجز الصنعة . فادركه الحريق مرتين ، فتهدّم وجدّد ، وذهب اكثر رخامه ، فاستحال رونقه ، فأسلم ما فيه اليوم قبلته مع الثلاث قباب المتصلة بها . ومحرابه من أعجب المحاريب الاسلامية حسناً ، وغرابة صنعة ، يتّقد ذهباً كله . وقد قامت في وسطه محاريب صغـــار متصلة بجداره ، تحفها سويريات مفتولات فتل الاسورة ، كأنها مخروطة ، لم يرَ شيء اجمل منها ، وبعضها حمر كأنها مرجان . فشأن قبلة هذا الجامع المبارك – مع ما يتصل بها من قبابه الثلاث ، واشراق شمسياته المذهبة الملونـــة عليه ، واتصال شعاع الشمس بها ، وانعكاسه الى كل لون منها ، حتى ترتمي الابصار منه أشعة ملونة . . . .

وفي هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم ، كل يوم اثر صلاة الصبح، لقراءة سبع من القرآن دائماً، ومثله اثر صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية ، يقرأون فيها من سورة الكوثر الى

الخاتمة، ويحضر في هذا المجتمع الكوثري كل من لا يجيد حفظ القرآن . وللمجتمعين على ذلك اجراء كل يوم ، يعيش منه أزيد من خمس مئة انسان . وهذا من مفاخر هذا الجامع المكرم . فلا تخلو القراءة منه صباحاً ولا مساء . وفيه حلقات للتدريس للطلبة ، وللمدرسين فيها اجراء واسع . وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي ، يجتمع فيها طلبة المغاربة ، ولهم اجراء معلوم . ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء ، واهل الطلب ، كثيرة واسعة . وأغرب ما يحدّث به ان سارية من سواريه ، هي بين المقصورتين القديمة والحديثة ، لها وقف معلوم يأخذه المستند اليها للمذاكرة والتدريس . ابصرنا بها فقيهاً من اهل اشبيلية ، يعرف بالمرادي . وعند فراغ المجتمع السبعي من القراءة صباحاً ، يستند كل انسان منهم الى سارية ، ويجلس امامه صبي يلقّنه القرآن . وللصبيان ايضاً على قراءتهم جراية معلومة . فأهل الجدة من آبائهم ينزهون ابناءهم عن اخذها ، وسائرهم يأخذها . وهذا من المفاخر الاسلامية [1] .

ولم يكن افتتان ابن جبير بالمدارس والمستشفيات والزوايا اقل من افتتانه بالجامع . فقد كانت تلك بيوت العلم في الاسلام ورمز التماسك الاجتماعي واعمال البر والاحسان . وحماسته لها تبدو واضحة في وصفه اياها :

---

١ — رحلة ابن جبير ، ص ٢٤٩ — ٢٦٠ .

وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة ، وبها مارستانان قديم وحديث ، والحديث احفلهما واكبرهما ، وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً ، وله قَـوَمة بأيديهم الازمة المحتوية على اسماء المرضى ، وعلى النفقات التي يحتاجون اليها في الادوية والاغذية وغير ذلك . والاطباء يبكرون اليه في كل يوم ، ويتفقدون المرضى ، ويأمرون باعداد ما يصلحهم من الادوية والاغذية ، حسبما يليق بكل انسان منهم . والمارستان الآخر على هذا الرسم، لكن الاحتفال في الجديد اكثر . وهذا القديم هو غربيّ الجامع المكرم . وللمجانين المعتقلين ايضاً ضرب من العلاج ، وهم في سلاسل موثقون ، نعوذ بالله من المحنة وسوء القدر . . . .

وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الاسلام ، والمدارس كذلك . ومن احسن مدارس الدنيا منظراً مدرسة نور الدين رحمه الله ، وبها قبره نوره الله . وهي قصر من القصور الانيقة ، ينصب فيها الماء في شاذَروان وسط نهر عظيم ، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة الى ان يقع في صهريج كبير وسط الدار . فتحار الابصار في حسن ذلك المنظر ، فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين رحمه الله . واما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة ، وهي برسم الصوفية . وهي قصور مزخرفة، يطّرد في جميعها الماء على احسن منظر يبصر .

وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد ، لانهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها ، وفرّغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في اسباب المعايش، واسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان . فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والآخرة . وهم على طريقة شريفة ، وسنّة في المعاشرة عجيبة ، وسيرتهم في التزام رتب الخدمة غريبة ، وعوائدهم من الاجتماع للسماع المشوّق جميلة ، وربما فارق منهم الدنيا في تلك الحالات المنفعل المثابر رقة وتشوقاً . وبالجملة فاحوالهم كلها بديعة ، وهم يرجون عيشاً طيباً هنيئاً [1] .

انه من نافل القول ان نذكر ان ابن جبير لم يقصر نشاطه او وصفه على الجزء المسور من المدينة ، فقد تنقل وتمتع وزار الاماكن المعظمة تبركاً بالزيارة . فدمشق كانت قد اصبحت في ايامه جزءاً لا يتجزأ من الادب الديني الاسلامي . فالامويون (٤١/٦٦١ – ١٣٢/٧٥٠) وخلفاؤهم من بعدهم اسبغوا على دمشق منزلة الكرامة – ففيها قتل قابيل اخاه هابيل ، وفيها ولد ابرهيم ، وفيها دفن رأس القديس يوحنا المعمدان وفيها ، وان جاءت آخراً فهي ليست الاقل اهمية ، وجدت السيدة العذراء والمسيح ملاذاً . يضاف الى ذلك ان مدافن المدينة كانت

---

١ – رحلة ابن جبير ، ٢٧٢ – ٢٧٣ .

تحتوي على قبور عدد من الصحابة . ولا شك ان بعضهم مدفون هناك ، لكن دمشق اصابها من التشريف اكثر من حصتها . وقد زار ابن جبير هـــذه المشاهد جميعها وامتلأ قلبه حبوراً لذلك . وتردد ايضاً على مواطن الحسن في ضواحي دمشق . وقد مر بنا وصفه للقلعة ، فلنصحبه الآن في زيارة للمنطقة المصاقبة لها ، وهي التي كانت تعرف في القرن السابع (الثالث عشر) باسم ميدان تحت القلعة . قال ابن جبير :

ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان ، منحازة في الجهة الغربية من البلد ، وهي بازاء باب الفرج من ابواب البلد . وبها جامع السلطان يجمّع فيه . وعلى مقربة منها ، خارج البلد في جهة الغرب ، ميدانان كأنهما مبسوطان خزّاً لشدة خضرتها ، وعليهما حلق ، والنهر بينهما ، وغيضة عظيمة من الحور متصلة بهما . وهما من ابدع المناظر ، يخرج السلطان اليهما ، ويلعب فيهما بالصوالجة ، ويسابق بين الخيل فيهما ، ولا مجال للعين كمجالها فيهما. وفي كل ليلة يخرج ابناء السلطان اليهما للرماية ، والمسابقة ، واللعب بالصوالجة .

وقد رقي ابن جبير جبل قاسيون القابع غربي دمشق ، حيث اشرف منه على المدينة وارباضها . ووصفه يضع امامنا صورة لدمشق كما كانت في القرن السادس (الثاني عشر) ، كما يبين لنا ما كان قد لصق بها من القصص الى ذلك الوقت ، فقد قال :

ويجبل قاسيون ايضاً لجهة الغرب ، على مقدار ميل او أزيد من المولد المبارك ، مغارة تعرف بمغارة الدم ، لان فوقها في الجبل دم هابيل قتيل اخيه قابيل ، ابني آدم صلى الله عليه ، يتصل من نحو نصف الجبل الى المغارة . وقـــد ابقى الله منه في الجبل آثاراً حمراً في الحجارة ، تحك فتستحيل، وهي كالطريق في الجبل ، وتنقطع عند المغارة، وليس يوجد في النصف الاعلى من المغارة آثار تشبهها فكان يقال : انها لون حجارة الجبل ، وانما هي من الموضع الذي جرّ منه القاتل لاخيه حيث قتله حتى انتهى الى المغارة ، وهي من آيات الله تعالى ، وآياته لا تحصى . وقرأنا في تاريخ ابن المعلى الاسدي : ان تلك المغارة صـــلى فيها ابرهيم ، وموسى ، وعيسى ، ولوط ، وايوب ، عليهم وعلى نبينا الكريم افضل الصلاة والسلام . وعليها مسجد قد أتقن بناؤه ، ويصعد اليه على أدراج ، وهو كالغرفة المستديرة ، وحولها اعواد مشرجبة مطيفة بها ، وبه بيوت ومرافق للسكنى . وهو يفتح كل يوم خميس . والسّرج من الشمع والفتائل تقد في المغارة ، وهي متسعة . وفي أعلى الجبل كهف منسوب لآدم صلى الله عليه وسلم ، وعليه بناء ، وهو موضع مبارك . وتحته في حضيض الجبل مغارة ، تعرف بمغارة الجوع ، ذكر ان سبعين نبياً ماتوا فيها جوعاً ، وكان عندهم رغيف ، فلم يزل كل واحد منهم يؤثر به صاحبه ، ويدور عليهم من يد الى يد ، حتى لحقتهم المنية ، صلوات

الله عليهم . وعلى هذه المغارة ايضاً مسجد مبني ، وابصرنا فيه السّرج تقد نهاراً .

ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينـــة ، من بساتين وارض بيضاء ورباع ، حتى ان البلد تكاد الاوقاف تستغرق جميع ما فيها . وكل مسجد يستحدث بناؤه ، او مدرسة ، او خانقة ، يعيّن لهـــا السلطان اوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها ، وهذه ايضاً من المفاخر المخلّدة. ومن النساء الخواتين ذوات الاقدار من تأمر ببناء مسجد او رباط او مدرسة ، وتنفق فيها الاموال الواسعة ، وتعيّن لها من مالها الاوقاف . ومن الامراء من يفعل مثل ذلك ، لهم في هذه الطريقة المباركة مسارعة مشكورة عند الله عز وجل .

وبآخر هذا الجبل المذكور ، في آخر البسيط البستاني الغربي من هذا البلد ، الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله تعالى : مأوى المسيح وأمه صلوات الله عليها ، وهي من ابدع مناظر الدنيا حسناً ، وجمالاً ، واشراقاً ، واتقان بناء ، واحتفال تشييد ، وشرف وضع ، هي كالقصر المشيد ، ويصعد اليها على ادراج . والمأوى المبارك منها مغارة صغيرة في وسطها ، وهي كالبيت الصغير . وبازائها بيت يقال : انه مصلّى الخضر صلى الله عليه وسلم . فيبادر الناس للصلاة

بهذين الموضعين المباركين ، ولا سيما المأوى المبارك . وله باب حديد صغير ينغلق دونه ، والمسجد يطيف بها، ولها شوارع دائرة ، وفيها سقاية لم ير احسن منها ، قد سيق اليها الماء من علو ، وماؤها ينصب على شاذروان في الجدار ، متصل بحوض من رخام يقع الماء فيه ، لم ير أحسن من منظره . وخلف ذلك مطاهر ، يجري الماء في كل بيت منها، ويستدير بالجانب المتصل بجدار الشاذروان . وهذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد ، ومقسم مائه ، ينقسم فيها الماء على سبعة انهار ، يأخذ كل نهر طريقه . واكبر هذه الانهار نهر يعرف « بِشَوْرَا » ، وهو يشق تحت الربوة، وقد نقر له في الحجر الصلد اسفلها ، حتى انفتح له متسرّب واسع كالغار ، وربما انغمس الجسور من سبّاح الصبيان او الرجال من اعلى الربوة في النهر ، واندفع تحت المـــاء حتى يشقّ متسرّبه تحت الربوة ويخرج اسفلها ، وهي مخاطرة كبيرة . ويُشرف من هذه الربوة على جميع البساتين الغربية من البلد ، ولا اشراف كاشرافها حسناً وجمالاً واتساع مسرح للابصار . وتحتها تلك الانهار السبعة تتسرب وتسيح في طرق شتى ، فتحار الابصار في حسن اجتماعها ، وافتراقها ، واندفاع انصبابها . وشرف موضوع هذه الربوة ، ومجموع حسنها ، اعظم من ان يحيط به وصف واصف في غلوّ مدحه . وشأنها في موضوعات الدنيا الشريفة خطير كبير .

ويتصل بها اسفل منها، بقربة من المسافة ، قرية كبيرة تعرف « بالنّيرب » ، قد غطتها البساتين ، فلا يظهر منها الا ما سما بناؤه . وبها جامع لم ير احسن منه ، مفروش سطحه كله بفصوص الرخام الملون ، فيخيّل لناظره انه ديباج مبسوط . وفيه سقاية ماء رائقة الحسن ، ومَطْهَرة لها عشرة ابواب ، يجري الماء فيها ، ويطيف بها . وفوقها لجهة القبلة قرية كبيرة ، هي من احسن القرى ، تعرف « بالمزّة » ، وبها جامع كبير وسقاية معينة . وبقرية النيرب حمّام ، واكثر قرى هذه البلدة فيها الحمامات [1] .

---

١ — رحلة ابن جبير ، ٢٦٣ — ٢٦٥ .

٣ الرحالون الأوروبيون في دمشق

وطد المماليك حكمهم في مصر ١٢٥٠/٦٤٨ ، ولم يمرّ عليهم نصف قرن من الزمان حتى كانوا قد ضموا فلسطين ولبنان وسورية الى امبراطوريتهم ، وبذلك اخضعوا ما كان من قبل دويلات لاتينية في الساحل ، وقضوا على بقايا الامارات الايوبية في الداخل . وكانت اليد التي تحكم الآن يداً اقوى من ذي قبل . ومن ثم فان الميل الى التوسع الذي كان قد اخذ سبيله الى دمشق في القرن السادس (الثاني عشر) ازداد الآن قوة . ففي اوائل القرن الثامن (الرابع عشر) انتقلت النشاطات التجارية من الشوارع الضيقة في المدينة المسوّرة الى ميدان تحت القلعة الذي كان يتطور بسرعة ، والذي كان له دور فعال في حياة المدينة الاقتصادية . ولم يقتصر الامر على هذا بل ان الحياة الاقتصادية انتعشت عموماً لان المناطق المحيطة بدمشق زاد اعتمادها عليها ، ولان المدينة كان يرد عليها عدد متزايد من الحجاج الذين وجدوا في دمشق منطلقاً الى مكة المكرمة . ومن ثم فقد ارتفع عدد الناس الذين كانوا بحاجة الى الزاد والمؤن ، لا اثناء اقامتهم في دمشق وحسب ، بل للتزود للطريق الى مكة ذهاباً واياباً ، وكانت هذه السفرة تقتضي من الوقت ثلاثة شهور او اربعة . ذلك ان الطريق بين دمشق ومهبط الوحي كانت تجتاز صحارى

قاحلة ، وكان الحجاز نفسه بـــلداً فقيراً ، فكان من المحتم على الحجاج ان يحملوا من الزاد ما يحتاجونه مسافرين ذهاباً واياباً وما يلزمهم اثناء حجّهم . يضاف الى ذلك ان دمشق اصبحت قاعدة عسكرية تنطلق منها الحملات المملوكية لحرب المغول والصليبيين والارمن او تأديباً للعصاة والثوار . وكان الجنـــد بحاجة الى المؤن والدواب والعدة والثياب . وهكذا تهيأت لدمشق الاحوال التي تساعدها على الازدهار .

كان المماليك مولعين بالبناء ، وبعض مآثرهم في العمارة في دمشق ، مثـــل المدرسة الظاهرية ، لا تزال حتى اليوم تبهج الناظر . وقد اتاح هذا للبنائين ومهرة الصناع ان يحافظوا على المهارة التقليدية في الفنون الزخرفية . وكانت المدارس كثيرة عبر التاريخ المملوكي ، وكان ثمة مشاركة جدية في شؤون العلم والتعليم طوال هـــذه المدة . ولما وجد السكان التشجيع على السكنى خارج الاسوار ، اتسعت الضواحي القديمة ونشأت ضواح جديدة ، بحيث اصبح الكثير منها بلداناً صغيرة .

وزادت القلعة اهمية ، خاصة لما استقلت عن نائب السلطنة في دمشق واصبح لها واليها الخاص . والقلعة التي اصبحت جزءاً رئيسياً من تحصينات المدينة ، كانت موضع عناية آل زنكي والايوبيين والمماليك . وقد ادرك الملك العادل ، عم صلاح الدين وخليفته ، حاجة القلعة الى التوسيع والتقوية . فهدم المتصدع

من البناء حتى كاد ان يعفو اثره ، وجعل الامراء مسؤولين عن القلعة الجديدة التي كانت تحيط بها اسوار حصينة عليها اثنا عشر برجاً ويدور بها خندق . ومما كان داخلها مدرستها وجامعها وحماماتها وبركة . ثم بني داخلهـــا تدريجاً مساكن للامراء والجنود والخدم .

كانت القلعة خربة تقريباً لما رحل قازان عن دمشق ، ولم يرَ الملـــك الظاهر انه من المناسب ان يترك المدينة خلواً من الحصون . لذلك فانه بنى اسوارها وعني بترميم القلعة . فلما تم ذلك اصبح للقلعة اربعة ابواب كان احدها ، وهو الشرقي ، يؤدي الى المدينة وكان الناس يعبرون اليها على جسر متحرك . وكانت الابواب الثلاثة الباقية توصل القلعة الى مناطق خارج المدينة ، وكان الغربي منها يؤدي الى ميدان الصولجان . ولما ولي سنجر امور دمشق في عهد الملك الاشرف في اواخر القرن السابع (الثالث عشر) ، اقام ابنية اخرى داخل القلعة وهدم بعض المنازل والحوانيت في الرقعة المصاقبة لها . ولعل الفصل بين ادارة المدينة والقلعة يرجع الى هذا الوقت .

ومع ان جيوش تيمور دمرت بعض دمشق وقلعتها ، فقد اعيد بناؤهما حالاً بعـــد رحيله . ذلك ان السلاطين لم يكن بامكانهم ان يهملوا هذا الجزء الهام من التحصينات .

وقد تركت القلعة اثراً كبيراً في نفوس الرحالين الاوروبيين. ففي اواسط القرن الثامن (الرابع عشر) كتب نيكولاو البوغيبونصي يقول « في طرف المدينة تقع قلعة حصينة يدور بها سور مرتفع ويتوصل اليها عبر جسر يقوم على نهر [خندق]، ويقوم اعوان السلطان على حراستها » . ولما زار جورجو غوتشي المدينة بعد ذلك بقليل قال في وصف القلعة :

ان دمشق، او الجزء المحاط بالاسوار منها، تبلغ مساحته ثلاثة اضعاف مساحة فلورنسة. ويدور بها سوران: اي ان هناك اولاً سوراً متيناً يبلغ ارتفاعه نحو ٣٠ ذراعاً وهو خارج الخندق، وثمة سور آخر يبعد عن الاول بين ١٥ و ١٦ ذراعاً ويزيد ارتفاعه عشرة اذرع عن السور الاول . والسوران محصنان، اذ تقوم عليهما ابراج مستديرة كثيرة على ابعاد تبلغ خمسين ذراعاً في كل حالة . والابراج أعلى من السورين . وحول السورين يوجد خندقان، داخلي وخارجي . والمدينة المذكورة حصينة جداً باسوارها وخنادقها . ويوجد في داخلها قلعة لها اسوار وخنادق، ويبلغ محيطها نحو الميل . ولا يقيم فيها الا حملة السلاح الذين يدافعون عن المدينة والبلاد باسم السلطان . ولا يسمح لاي شخص آخر بدخولها . ومنازلها متسعة بحيث يمكن ان

يأوي اليها نحـــو عشرين ألفاً من رجال الحرب مـع خيولهم [١] .

وقد زار دمشق ، بعد حمـــلة تيمور ، برتراندون دو لا بروكييه ، فقال عنها :

لدمشق قلعة حصينة ، تقع في مواجهة الجبل ، تحيط بها خنادق عريضة عميقة ، يشرف عليها نائب من ثقات السلطان ، ولا يسمح لوالي دمشق بدخولها . وقد دمرها تيمور سنة ٨٠٢/١٤٠٠ بحيث سوى بها الارض ، ولا تزال آثار هذه النكبة ظاهرة للعيان . كما انه على مقربة باب القديس بولس لا يزال حي باكمله من المدينة لم يرمم بعد ، وفي المدينة خـــان (فندق ؟) يأوي اليه التجار حيث يأمنون على انفسهم ومتاعهم [٢] .

وقد كان بين الرحالـــين الذين زاروا دمشق (سنة ٩٠٨/١٥٠٢) ، قبل سقوط دولة المماليك ، لودفيكو دي فارتما البولوني — نسبة الى بولونا — الذي ابدى اعجابه بالقلعة فقال عنها :

---

١ — انظر : Gucci p. 142

٢ — انظر بروكييه في : Early Travels in Palestine p. 204

يتحتم عليك ان تعرف ان في مدينة دمشق قلعة حصينة جميلة ... يضاف الى ذلـــك انه في كل زاوية من القلعة المذكورة يوجد رنك فلورنسي محفور بالرخام . وهي [القلعة] محاطة بخنادق ولها اربعة ابراج متينة التحصين وجسور متحركة . وتعلو هذه الابراج دوماً مدافع قوية ممتازة . وثمة خمسون مملوكاً ، من خدم السلطان الكبير ، يقيمون مع والي القلعة باستمرار [١] .

وكان البدري ، وهو مصري سكن دمشق وكان كبير العناية بمراقبة الحصون ومواطن الجمال ، قد كتب قبل لودفيكو بقليل يقول :

ومن محاسن الشام قلعتها وحسن بنائها واتساعها فانها قدر مدينة ... وبها حمام وطاحون وبعض حوانيت لبيع البضائع . وبها دار الضرب التي تضرب فيها النقود . وبها الدور والحواصل وبها الطارمة التي ليس على وجه الارض احسن منها كأنها افرغت بقالب من شمع ينظر الرائي اعلاها فيحسن نظره وان طال مرآه .

وهي تسامت رءوس الجبال . يقال ان تمرلنك لما ان

---

١ — The Itinerary of Ludvico di Varthema. London, 1928, p. 8-11.

حاصرها وعجز عنها امر ان ينقب تحتها وتقطع الاشجار وتعلق بها حتى اذا انتهى تعليقها اطلق النار فيما تحتها من الاخشاب وظن انها تفسخ بذلك وتسقط شذر مذر فيبلغ مراده من اخذ القلعة . فلما عمت النار فيما تحتها بركت بصوت ازعج الوجود .

وبالقلعة آبار ومجار للمـــاء ومصارف بحيث اذا وقع الحصار وقطع عنهم الماء تقوم الآبار مقامه [١] .

كان بين المباني الرسمية التي حفلت بها دمشق قصر بيبرس ودار العدل والميادين الكثيرة التي كان ابعدها شهرة الميدان الاخضر وميدان الحصى . وكانت مواكب نائب السلطنة والاستعراضات الحربية تقام في هذا الميدان ، كما كان السلطان يلعب الصولجان فيه او يتمتع بمشاهدة سباق الخيل . اما ميدان تحت القلعة فما كان اكثر من يرده من المهرجين والمشعوذين والقصاصين ، وخاصة في ليالي الصيف .

وكان الى جنوب المدينة ميدان آخر ، على مقربة من حي الميدان اليوم، يزخر بالناس مرتين في العام : عند مغادرة موكب الحجاج وعند عودتهم . ولم يغفل الرحالون والكتاب عن تدوين

---

١ – البدري : نزهة الانام في محاسن الشام، (القاهرة ١٣٤١) ص ٦٠ .

وصفهم لهذه المناسبة الهامة . (وانا اذكر شخصياً استمتاعي بمثل هذا الاحتفال في طفولتي ايام كانت اسرتي تقطن دمشق) . وقد كتب ابن جبير عن ذلك .

وقد كان بين الرحالين الاوروبيين الذين تأثروا بهذا الاحتفال برتراندون دو لا بروكيه الذي خلف لنا صورة حية لعودة الحجاج قال :

في اليوم التالي لوصولي شاهدت قافلة الحجاج عائدة من مكة . وقد قيل انها كانت تتألف من ثلاثة آلاف من الابل. وفي الواقع استغرق دخول الحاج المدينة يومين وليلتين. وقد كانت هذه الحادثة ، على مألوف القوم ، يوماً بالغاً في الحفاوة . وقد خرج والي دمشق ، يحف به مقدمو المدينة ، لاستقبال الحجيج اجلالاً للقرآن الذي كانوا يحملونه .... وكان ملفوفاً بغلاف من الحرير ، عليه كتابة عربية ، وكان الجمل الذي يحمله مجللا بالحرير . وكان يتقدم الجمل اربعة من حملة المزمار والطبول والدربكات الكثيرة وكلها تدق. وكان يحيط بالجمل نحو ثلاثين رجلاً يتنكب بعضهم الاقواس ، ويشهر آخرون السيوف ، ويحمل غيرهم البنادق ويطلقون النيران بين الفينة والفينة . وكان يتلو الجمل ثمانية رجال اجلاء ، يعلون ابلاً سريعة العدو ، وخيولهم المجنوبة مجللة بالقماش المزركش تعلوها سروج مزخرفة ، على عادة القوم

هناك . وقد تلا ذلك هودج مغطى بالقماش الجميل يحمله جملان ، وفيه سيدة هي قريبة للسلطان . وقد كان ثمة عدد كبير من هذه الدواب المجللة بالقصب المذهب . اما الحجيج فقد كانوا عرباً واتراكاً وبرابرة ومغولاً وفرساً وغير ذلك من المسلمين [١] .

واما المكان الذي لم يكن يعلو عليه مكان في دمشق ، ولا يزال كذلك الى يوم الناس هذا ، فهو الجامع الاموي الكبير . ولعل ذلك يعود الى انه لم يكن استعماله مقصوراً على فئة دون اخرى، بل كان مفتوحاً لجميع المسلمين . وابن بطوطة، الرحالة المغربي الشهير الذي زار دمشق في القرن الثامن (الرابع عشر)، واقام فيها بعضاً من الوقت ، خلف لنا وصفاً مطولاً للمسجد الجامع . ومع انه نقل بعض ما قاله عن ابن جبير ، فقد اضاف بضعة انطباعات شخصية يجد القارىء فيها متعة خاصة . فقد لاحظ انه كان للجامع ثلاثة عشر اماماً يقومون على خدمته . ولاحظ ايضاً ان الجامع « اعظم مساجد الدنيا احتفالاً، واتقنها صناعة ، وابدعها حسناً وبهجة وكمالاً ، ولا يعلم له نظير ولا يوجد له شبيه [٢] .

---

١ — بروكيبه في المرجع نفسه ، ص ٣٠١ .

٢ — رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ص ٢١٠ .

وقد وصف ابن بطوطة التعليم في الجامع بقوله :

ولهذا المسجد حلقات التدريس في فنون العلم والمحدثون يقرأون كتب الحديث على كراسيّ مرتفعة ، وقراء القرآن يقرأون بالاصوات الحسنة صباحاً ومساء . وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم الى سارية من سواري المسجد يلقّن الصبيان ويقرئهم . وهم لا يكتبون القرآن في الالواح تنزيهاً لكتاب الله تعالى وانما يقرأون القرآن تلقيناً . ومعلّم الخط غير معلم القرآن يعلّمهم بكتب الاشعار وسواهـا فينصرف الصبيّ من التعليم الى التكتيب ، وبذلك جاد خطه ، لان المعلم للخط لا يعلّم غيره [1] .

ولعل من خير ما وصل الينا في وصف الدور الذي كان يقوم به الجامع الاموي هو الذي تركه ابن فضل الله العمري ، وهو من جغرافيي القرن الثامن (الرابع عشر) ، قال العمري :

وهذا المسجد معمور بالناس كل النهار وطرفي الليل ، لانه ممرّ المدارس والبيوت والاسواق . وفيه مـا ليس في غيره من كثرة الأئمة والقرّاء ، ومشايخ العلم والاقراء ،

---

١ - المصدر نفسه ، ٢١٢ - ٢١٣ .

ووجوه اهل التصدير والافتاء ، ووظائف الحديث وقراء الاسباع والمجاورين من ذوي الصلاح . فلا تزال اوقاتـــه معمورة بالخير ، آهلة بالعبادة . قل ان يخلو طرفة عين في ليل او نهار من مصلّ ، او جالس في ناحية منه لاعتكاف ، او مرتل لقرآن ، او رافع عقيرته بأذان ، او مكرر في كتاب علم ، او سائل ومسئول ، ومفت ومستفت . هذا الى من يأتي هذا المسجد مستأنساً لحديث ، او مرتقباً لقاء اخ ، او متفرجاً في فضاء صحنه وحسن مرأى القمر والنجوم ليلاً في سمائه . هذا الى فسحة الفضاء وطيب الهواء وبرد رواقاته ، اوقات الهجير ، وحسن مرائي ميازيبه ، احيان المطر . وفي كل ناحية من وجهها قمر .

وعلى هذا الجامع من الوظائف المرتبة ما لا يستقلّ به الا ديوان ملك ، وعليه جلائل الاوقاف . الا ان الايدي العادية قد استولت على كثير منه لشبه الاكابر والمناصبات ، وغير ذلك مما عمل عليه على سبيل النصبات [١] .

وكانت اسواق دمشق ومتاجرها مدعاة لادخال السرور والمتعة الى نفوس زوارها ، سواء أتوا من الشرق او الشمال او الجنوب . وما كانت دمشق العصر المملوكي لتختلف عن دمشق

---

١ – العمري : مسالك الابصار ، ج ١ ص ٢٠٢ – ٢٠٣ .

في اي عصر آخر ، ولم يكن زوارها الاوروبيون ليختلفوا عن غيرهم من هذه الناحية . وقد تنبه بعضهم لا الى البضائع المعروضة للبيع فحسب ، بل الى تنظيم الصناعات والاسواق ، وزودنا البعض الآخر بمعلومات عن تنظيم العمل في المدينة .

فسورية بلد غني ، وقد كان موقعها على الطرق التجارية ذا فائدة خاصة لها في العصور المتوسطة . ولم تفد دمشق من هذه التجارة فحسب ، بل من الصناعات ايضاً، وخاصة من الحرف. فقد كانت دمشق تنتج السكر والنقولات وتصنع المنسوجات القطنية والحريرية والزجاج والخزف والفخار والمزخرفات الحديدية والكاغد والصابون والعطور وماء الورد وماء الزهر والشموع والاحذية . وكانت المدينة مشهورة ايضاً بصياغة الذهب والفضة . وكانت تقرن بالقاهرة ، وكان بعض الاوروبيين يفضلونها على باريس وفلورنسة .

وثمة فئة من الرحالين الاوروبيين مثل نيكولو البوغبونصي وليوناردو فرسكوبالدي وجورجو غوتشي وسيمون سيولي وفون سوخم الذين زاروا الاراضي المقدسة في القرنين السابع والثامن (الثالث عشر والرابع عشر) ، او مثل برتراندون دو لا بروكييه ولودفيكو دي فارتما ، الذين شملت زياراتهم المشرق في الوقت نفسه : جميع هؤلاء قادتهم اسفارهم الى دمشق . وهؤلاء هم مرشدونا في زيارة دمشق في تلك الفترة .

فلنزر اجزاء المدينة المختلفة في صحبة هؤلاء النفر . وقد ضمت رواياتهم بعضها الى البعض الآخر ، فتمّ لنا منها صورة ذات ألوان زاهية لاسواق دمشق ومتاجرها .

ان جميع الشوارع الواقعة داخل اسوار المدينة تنيرها في الليل مصابيح معلقة فيها . وبيوتها مرتفعة ومبنية من الخشب الذي لا يظهر للعيان، اذ ان جدرها الداخلية مطلية باللون الازرق الفاتح ، وارضها مكسوة بالفسيفساء . ما اقل البيوت التي لم تكن فيها نوافير منحوتة من الرخام، هي متعة للناظرين .

ومع ان عشرين الفاً قد يغادرون دمشق الى مكة لاداء فريضة الحج ، فلم يبد على المدينة كأن احداً تركها ، وقد كانت شوارع كثيرة يملأها الناس كما يملأ الناس شوارع فلورنسة يوم عيد القديس يوحنا . وكما كانت المدينة مزدحمة بالسكان فان شوارعها كانت مكتظة بالتجار والصناع .

ان ما يصنع في دمشق ، من اي نوع كان ، كبيراً كان او صغيراً ، هو اكثر مما يصنع في اي مكان آخر في الدنيا ، سواء في ذلك الاقمشة الحريرية والقطنية والكتانية والذهب والفضة والنحاس من جميع الاصناف ، والزجاج من جميع الانواع . فقد حذق الصناع ذلك كله ، وكان منهم مهرة الصناعة في كل فن. وعندهم الى ذلك غالب اصناف الفواكه

الجيدة ، التي يحفظونها من سنة لاخرى . والثلج موجـــود باستمرار في دمشق ، فكان يوضع في الصيف على الفواكه باصنافهـــا فيحفظها طازجة ويبردها بحيث تكون لذيذة المطعم . وتباع جميع المآكل في الشوارع كالخبز والماء واللحم المطهو على اختلاف انواعه ، وكل اصناف الفواكه ، اذ ان الناس هناك لا يطبخون في البيوت، بل انهم يبعثون في طلب كل ما يرغبون فيه من السوق . ويقوم في اماكن كثيرة ، في طول المدينة وعرضها ، طهاة امامهم اللحوم المنوعة، يطهون كل شيء ، وكل ذلك جيد ونظيف ، وبذلك يمكنهم ان يقدموا الى كل انسان ما يرغب فيه والكمية التي يريدها من لحم او غيره من مطهو الطعام . ويتنقلون في انحاء المدينة يبيعون ما عندهم ، حاملين متاعهم من موقد ومقلاة يغلي ما فيها ولحم ووعاء وكبشة صغيرة وماء وملح وكل ما هو لازم، على موائد لكل منها اربع ارجل يركزها الواحد على رأسه . اما الزبائن فيجلسون على صفات في الشوارع ليأكلوا على مهلهم والبائع ينتظر ، ويشربون الماء القراح والخشاف . وما اقل ما ينفقونه على طعامهم او مطبخهم او ثيابهم .

ولنعد الى متاجر دمشق : فهذه لا يصدق وصفها الذي لم يرها بام عينه ، وذلك بسبب كثرة التجار والصناع في المدينة باجمعها ، داخلها وخارجها . لا يمكن تصور شيء غير موجود في الضواحي . فاجمل ما في الدنيا وانبله واشده

اتقان صنعة موجود هناك . فلو انك سرت متفرجاً لرأيت المصنوعات الرائعة الانيقة الدقيقة التي تغريك ، بحيث لو انك كنت تخفي نقودك في قصبة رجلك لما ترددت في كسرها واخراج النقود لشراء بعض ما هناك. فان خيالك لن يمكنه ان يتصور شيئاً وبأي شكل كان الا وجدته هناك. فالاقمشة الحريرية الكثيرة من اي نوع او لون تجدها هناك على افضل واجمل ما يعرفه العالم . وثمة كميات كبيرة من الاقطان ، من اجمل ما في العالم ، بحيث لو شاهدها احد الناس ، ولم يكن خبيراً ، لحسبها حريراً لما هي عليه من النعومة واللمعان والدقة والجمال . والبروكار ايضاً متوفر في الاسواق . وما اكثر ما يصنع هناك من طسوت النحاس واباريقه التي تبدو كأنها من الذهب ، وكلها مزخرفة بنقوش من الاشكال والاوراق ، كما يعمل من الفضة اشياء فنية جميلة تسر العين لرؤيتها .

وهكذا فالصناعات جميعها كانت من شغل مهرة الصناع واقدرهم، هذا الى ما كانوا يتحلون به من نظام جميل، ونبيل ايضاً . اذ انه اذا كان الاب صائغاً فان ابناءه ما كان لهم ان يتعلموا غير صناعته ، وبذلك توارث الناس الصناعة جيلاً بعد جيل وترتب على ذلك انهم بلغوا الغاية في المهارة الصناعية في فنونهم . وحوانيتهم مرتبة انيقة نظيفة، بحيث ان مشاهدتها كانت باعثاً على السرور ، وجميعها

تملأها المتاجر . وكانت الحوانيت تمتلىء بنفس السرعة التي تباع المتاجر فيها ، اذ انه كان لديهم مستودعات كما ان بيوتهم كانت تملأها البضائع .

والواقع ان محاولة وصف المتاجر الكثيرة الموجودة في دمشق قد تربك الكاتب ، ولكن قد يقع الذي لم يرها في ارتباك وحيرة اشدّ . وحتى لو رغب الواحد في تعداد الصناعات واصناف الاشياء الموجودة ، لاضطر الى الاطالة الى ما لا قبل له به . اذ انه بالاضافة الى ما ذكر فان اسواق دمشق فيها الحجارة الكريمة والجواهر والافاويه التي تأتيها من الهند . وقد قال المسيحيون العارفون بهذه الامور بان ما في دمشق من المتاجر يكفي حاجات العالم المسيحي سنة كاملة . ولك ان تتصور ما اجمل هذا كله عندما تقع العين عليه : اما اللسان فيعجز عن القول ، كما يعجز العقل عن التصور .

يسكن في تلك المدينة عدد هائل من الناس ، بحيث ان شوارع دمشق مكتظة دائماً . وكان لهم ترتيب جميل لحراسة الشوارع التي فيها التجار والصناع ليلاً . ان اكثر شوارع دمشق مسقوفة او معقودة ويتخللها النور بالقدر اللازم من فتحات في السقف ، واذا جن الليل اوقــدوا المصابيح الزجاجية في الشوارع كلها بحيث يكون بين

المصباح والآخر اثنا عشر ذراعاً، فترى ليلاً وكأنها في وضح النهار ، بسبب المصابيح الكثيرة التي توقد . وقد قيل ان عدد المصابيح التي كانت توقد كل ليلة كان يبلغ نحو ثلاثين الف مصباح. وكان في كل شارع حراس يقومون على حراسة الحوانيت ، ولم يكن احد يجرؤ على الخروج ليلاً ان لم يكن معه قنديله. فاذا عثر على شخص دون ان يكون معه قنديل قبض عليه واقتيد امام الحاكم الذي يفرض عليه غرامة معينة . ومن ثم فلم يتعرض احد لشر قط . واذا اعتبر الواحد عدد السكان في تلك المدينة وجد انه كانت هناك افضل اسواق الخبز واللحم من كل صنف وخير الاشياء ، باستثناء الخمور ، لان السكان لا يشربونها . والحطب قليل . وكل شيء يباع بالوزن. وبسبب قلة الحطب يتجنب الكثيرون الطبخ في البيوت . بل انه كان هناك عدد كبير من الطهاة وكلهم غاية في النظافة ، وكان باستطاعة كل انسان ان يحصل على كل ما يريد مطبوخاً طبخاً جيداً ونظيفاً [١] .

زار برتراندون دو لا بروكيير دمشق في اواسط القرن التاسع (الخامس عشر) وقد جاءها من بيروت . وبعد زيارته لفلسطين اتجه شمالاً في سورية . وقبل ان ينضم الى حاشية مملوك ذاهب الى تركية ابتاع الاشياء التي احتاجها من دمشق . وها نحن اولاء ننقل هنا تجاربه وملاحظاته عن المدينة بكاملها :

---

١ — مختارات من فرسكوبالدي وغوتشي وسيغولي .

بعيد هذه المقابلة رافقت احد اصحابي الى السوق وابتعت رداءين طويلين حتى انهما كانا يبلغان الكاحل ، وعمة كاملة وحزاماً من الجلد ورباطين من القطن اضم بهما طرف الرداء، وكيسين صغيرين احدهما لاستعمالي والآخر للحصان [مخلاة] يطعم فيه شعيره وتبنه ، وملعقة من الجلد وملحاً وبساطاً انام عليه . وآخر ما ابتعته معطف من الجلد الابيض ، بطنتــــه بالكتان ، لاستعماله ليلاً . وابتعت كذلك جعبة بيضاء كاملة ، وقد تدلى منها سيف وسكاكين . اما الجعبة والسيف فقد ابتعتهما سراً ، اذ لو عرف القيمون على القضاء بذلك لتعرضنا ، انا والبائع ، الى مخاطر كبيرة .

ان سيوف دمشق هي انبل واجمل ما يصنع في سورية. ومن الممتع ان يلاحظ الواحد اسلوب الصناع في صقلها . فان هذا يتم قبل ان تسقى . ويستخدمون في سبيل ذلك مقبضاً من الخشب شكت فيه قطعة من الحديد يجرونها على نصل السيف ، وبذلك ينعم ملمسه ، كما تنعم الفارة سطح الخشب . ثم يسقونه ويلمعونه . وهذا التمليس بلغ حداً كبيراً من الاتقان بحيث ان الواحد اذا اراد ان يصلح من شأن عمامته اتخذ من نصل السيف مرآة . واما السقي فهو كامل ، ولم ار قــــط سيوفاً تقطع بمثل هذه الدرجة من الاتقان . ويصنع في دمشق ، وفي ما جاورها من الديار ، مرايا من المعدن التي تضخم الاشياء كما في الزجاج العاكس

النور . رأيت بعضها وقد وجهت نحو الشمس فعكست من الحرارة ما كان كافياً لحرق لوح من الخشب على بعد ١٥ او ١٦ قدماً .

قد يبلغ عدد سكان دمشق ، على ما بلغني ، نحو مئة الف نسمة . والمدينة غنية تجارية وهي ، بعد القاهرة ، أهم مدينة في دولة السلطان . يمتد حولها الى الشمال والجنوب والشرق سهل متسع ، ويرتفع غربها جبل عال وقد قامت الضواحي عند اقدامه . يخترقها نهر تقسمته قني متعددة . والمدينة وحدها يدور بها سور بديع ، لان الضواحي اوسع من المدينة . ولم تقع عيناي على حدائق اوسع ولا على فواكه اجود ، ولا على مياه اغزر من هذا الذي شاهدته هناك . فالماء هناك غزير الى حد انه قلما يعثر على بيت ليس فيه نافورة . وحاكم المدينة نائب السلطنة لا يعلو عليه ، في مصر وسورية ، سوى السلطان . ولكن بسبب الثورات التي قام بها بعض الحكام فان السلطان يحاول ان يضيق على الحكام حيطة وحذراً [١] .

---

١ – انظر بروكييه ، المصدر نفسه ص ٢٩٤ ، ٣٠١ – ٣٠٤ .

٤ دمَشق وضوَاحيهـا

تضافرت عوامل جديدة على تطوير ضواحي دمشق : منها الازدهار الاقتصادي وحكم القانون واستعادة المناطق الساحلية من الصليبيين وتركيز التجارة على الطرق السورية بسبب ما كان يعترض الطريق الشمالي البيزنطي من متاعب. وما اكثر الرحالين الذين زاروا سورية في القرن الثامن (الرابع عشر) والذين لاحظوا ان دمشق خارج الاسوار كانت اكبر من دمشق الداخلية .

كانت الضواحي موضع عناية ابن بطوطة ، وهو يشير الى الضواحي التي زارها ابن جبير – النيرب والمزة وقاسيون – ثم يضيف الى ذلك وصفاً للربوة والصالحية . وكان يرى في الربوة ما كانت التقاليد قد اقامتها حولها من انها « ربوة ذات قرار معين » . وقد ردد ابن بطوطة قول ابن جبير في عبارته :

وهذه الربوة تشرف على البساتين الدايرة بالبلد ولها من الحسن واتساع مسرح الابصار ما ليس لسواها وتلك الانهار السبعة تذهب في طرق شتى فتحار الاعين في حسن اجتماعها وافتراقها واندفاعها وانصبابها . وجمال الربوة وحسنها التام اعظم من ان يحيط به الوصف ولها الاوقاف الكثيرة من

المزارع والبساتين والرباع تقام منها وظايفها للامام والمؤذّن والصادر والوارد [1] .

ثم اضاف الى ذلك من عنده :

وفي آخر جبل قاسيون الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله ذات القرار والمعين ومأوى المسيح عيسى وأمه عليها السلام . وهي من اجمل مناظر الدنيا ومتنزهاتها ، وبها القصور المشيّدة والمباني الشريفة والبساتين البديعة . والمأوى المبارك مغارة صغيرة في وسطها كالبيت الصغير وازاءها بيت يقال انه مصلّى الخضر عليه السلام يبادر الناس الى الصلاة فيها وللمأوى باب حديد صغير والمسجد يدور به وله شوارع دايرة وسقاية حسنة ينزل لها الماء من علوّ وينصب في شاذروان في الجدار يتّصل بحوض من رخام ويقع فيه الماء ولا نظير له في الحسن وغرابة الشكل . وبقرب ذلك مطاهر للوضوء يجري فيها الماء [2] .

كان من اثر احتلال الصليبيين للقدس (١٠٩٩/٤٩٢) ان قرر بعض اهل التقوى المسلمين ان يهجروا المدينة المقدسة كي يتخلصوا من حـــكم المسيحيين . ومن هؤلاء ابو عمر ابن قدامة

---

١ — رحلة ابن بطوطة، ١ : ٢٣٥ .

٢ — رحلة ابن بطوطة ، ١ : ٢٣٣ — ٢٣٤.

المقدسي، الذي خرج من القدس مع جماعة كبيرة من الاتباع ، لم تلبث ان ازداد عددها . واستقر المقدسي وجماعته في مسجد ابي صالح خارج باب شرقي في دمشق ، ثم انتقلوا فيما بعد الى سفح جبل قاسيون حيث انشأوا مدرسة وزاوية للحنابلة . وقد سماهم الناس الذين نزلوا في جوارهم الصالحين اما لصلاحهم او بسبب اقامتهم في مسجد ابي صالح قبلاً . وعلى كل حال فقد سميت الضاحية الجديدة الصالحية نسبة اليهم . يقول ابن بطوطة في وصف الصالحية التي كانت مزدهرة ايام زيارته لها :

وتدور بدمشق من جهاتها ما عـــدا الشرقية ارباض فسيحة الساحات دواخلها املح من داخل دمشق لاجل الضيق الذي في سككها . وبالجهـــة الشمالية منها ربض الصالحية وهي مدينة عظيمة لها سوق لا نظير لحسنه وفيها مسجد جامع ومارستان وبها مدرسة تعرف بمدرسة ابن عمر موقوفة على من اراد ان يتعلـّم القرآن الكريم من الشيوخ والكهول ، وتجري لهم ولمن يعلـّمهم كفايتهم من المآكل والملابس . وبداخل البلد ايضاً مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة ابن منجـّا واهل الصالحية كلهم على مذهب الامام احمد بن حنبل رضي الله عنه [1] .

وقد كان في الصالحية في اواخر العهد المملوكي سبع دور

---

١ – المصدر نفسه ، ص ٢٢٩ – ٢٣٠ .

للحديث وستة عشر رباطاً وثمان وثلاثون حارة وواحد وسبعون مسجداً .

وقد ذكر احد الكتاب المتأخرين ما كانت تنتجه الصالحية وغيرها من ضواحي دمشق من الفواكه والخضار ومنها التفاح والخوخ والتوت والرمان والتين والخس والهليون، وكانت تغرس فيها الزهور وخاصة الزنبق والبنفسج .

واذن فقد كانت دمشق محاطة من كل جهة ، الا من الجهة الشرقية ، بضواح مزدهرة فيهـــا بيوت ومدارس ومساجد واسواق واماكن للـهو ، وكانت طبيعة المنطقة تضفي على هذه الاماكن سحراً خاصاً. ولم يكن الدمشقيون يحارون اين يقضون ايام المتعة والصفاء سواء في ذلك الربيع والصيف والخريف ، وعندهم الغوطة والجبهة ووادي البنفسج وبين النهرين وقطية واليلكي . وكان في كل من هذه الامكنة حوانيت تبيع الطعام الجاهز والحلوى، وكان ثمة امكنة يأوي اليها الناس اذا احتاجوا الى ذلك . وكان المؤمنون يجدون حتى زوايا يختلفون اليها حيث يقيمون الذكر والصلاة مع غيرهم . وكان البعض يذهبون الى ربض الاديرة المسيحية طلبـــاً للنزهة ، وكانوا في الاغلب من الحالات موضع ترحيب . فالناس كانوا ، على العموم ، يقضون اوقات فراغهم في نزهة ، وكانوا يحسنون التصرف هناك . اما

اولئك الذين كانو يسعون وراء رغبات وامور لا يقبلها المجتمع فقد كانوا يختلفون الى اماكن محجوبة ، وما كان اكثرها .

. . .

قد اشرنا عدداً من المرات الى مدارس دمشق ، وقد آن لنا ان نتحدث عنها بشيء من التفصيل في هذه المرحلة من دراستنا. بين ايدينا اسماء ست وثمانين مدرسة عرفتها دمشق زمن المماليك، وكان بعضها قد انشىء قبل ايامهم . وقد كان منها مدرستان طبيتان مرتبطتان بالبيمارستانين . اما المدارس الاخرى فقد كانت مدارس دينية ينحصر التدريس فيها في المذهب الشافعي والحنفي والحنبلي . ولم يكن للمالكية في سورية مكانة خاصة ايام المماليك ، الا ان بعض المؤلفات المعنية بتلك الحقبة تشير احياناً الى مدارس مالكية .

وقد كان بين المدارس الدينية الاربع والثمانين في دمشق خمس وثلاثون شافعية واربع وثلاثون حنفية وثمان حنبلية وسبع مشتركة لمذهبين او اكثر . ومما هو حري بالذكر ان الايوبيين كانوا على المذهب الشافعي ، وان دمشق كان قاضي القضاة فيها دوماً شافعياً حتى ايام بيبرس الذي امر بأن يكون في كل من القاهرة ودمشق وحلب اربعة من قضاة القضاة . وكان الحنابلة حديثي عهد في الاستقرار في دمشق ، اذ جاءوها في القرن

الخامس (الحادي عشر) ومطلع القرن السادس (الثاني عشر) من الشرق ، وخاصة من بغداد .

كانت اوقاف المدارس غنية . وقد كان حبس الملك لتوفير النفقات للمؤسسات امراً قديماً في الاسلام ، ويبدو ان هذا دفع الى الامام في ايام تملك السلاجقة وآل زنكي والايوبيين والمماليك. كان اولو الامر يقومون بالعمل والاثرياء يقتفون آثارهم . وكان المألوف ان يزود الوقف المدرسة بحاجتها من المدرسين ، الذين قد يبلغ عددهم ثلاثين مدرساً ، والماء والنور والاثاث . وكانت بعض الاحباس الغنية توفر الخبز والنفقات للطلبة . وما اكثر ما يجد الباحث انه كانت ثمة مدارس تأتي نفقاتها من ايجار سوق ببضعة بساتين ومن بعض اسباب التجارة . فقد كان وقف المدرسة الريحانية مكوناً من بستانين وقطعة ارض وبستانين للخضار وخمسة اسداس مزرعة واسطبل . وكان وقف المدرسة الجوانية غنياً على ما يبدو من نفقاتها : فقد كان كل من مدرسيها الخمسة والعشرين يتقاضى ١٣٠ درهماً شهرياً بالاضافة الى كيل كبير من القمح وآخر من الشعير (لدابته) ايضاً . وكان الناظر على المدرسة يتناول عشر مدخول المدرسة لقاء اتعابه وسهره ومراقبته ما تملكه المدرسة . وقد خصص ٨٠٠ درهم لتنفق على الاحتفاء بليلة نصف شعبان . وكان للناظر ان يزيد عدد المدرسين وغيرهم اذا رأى في ذلك نفعاً .

كانت ابنية هذه المدارس ضخمة جميلة : فقد اقام المماليك صروحاً للعلم اصيلة . كانت المدرسة تتألف من صحن تتوسطه نافورة محفورة من الرخام ، تدور به اروقة في جهاته الاربع . وكان احد هذه الاروقة يؤدي الى المسجد ، فيما كان رواق ثان ينتهي بمقصورة تعلوها قبة ويقوم في وسطها في غالب الاحيان قبر صاحب المدرسة ، وكان يحاذي الجانبين الآخرين الغرف المعدة للدرس والقراءة .

كان لكل مدرسة ناظرها الذي كان اليه النظر في الوقف وضبط الحسابات وتدبر انفاق الموارد وفق رغبات الواقف . وكان الناظر يختار من اهل العلم ، وغالباً ما كان قاضي قضاة المذهب، وقد كان التدريس بعض واجباته. وكان بين اصحاب التدريس المحدّثون والقراء والفقهاء وشيوخ النحو . وثمة ما يؤكد ان الحساب والمنطق درسا في بضع المدارس في دمشق .

كانت مدارس الضواحي تغلب عليها السعة الشديدة ، مثل مدارس الصالحية — كالمدرسة الضيائية والاتابكية والصاحبة والعمرية ، كما انها كانت غنية في اوقافها . فقد كان في الضيائية مكتبة احتوت العهدين القديم والجديد ، على ما روى ابن عبد الهادي ، وقد ظلت موضع اشراف حسن الى حملة تيمور على دمشق . ولعلّ العمرية كانت ابعد مدارس الصالحية ثراء . انشأها العالم ابو عمر بن قدامة مدرسة للحنابلة في اواخر القرن

السادس (الثاني عشر)، لكنها اصبحت فيما بعد مدرسة للمذاهب السنية جمعاء. وبسبب الاضافات المستمرة تدريجاً آلت الى مجموع كبير من القاعات والصحون ومسجد وغرف صغيرة كان الطلاب يعيشون فيها. وكان لها من الاوقاف ما مكن ناظرها من توزيع الف من الارغفة يومياً بالاضافة الى الخبز الذي كان يدفع به الى اصحاب التدريس. وكان مئات من الناس يتناولون طعام الافطار في رمضان من مطبخ العمرية، وكان الطعام يتكون من اللحم والحبوب والحلوى. فاذا جاءت ايام الاعياد طعم الحاضرون لحماً وحلوى أشهى وألذ، وسمح لهم باستعمال الحلل والماء الساخن. وكانت مكتبة العمرية بالغة الثروة في الكتب، ولم يكن استخدامها مقصوراً على اهل المدرسة فحسب.

. . .

بني في دمشق، بين سنتي ٥٤٥/١١٥٠ و ٩٠٦/١٥٠٠ ستة بيمارستانات كان اثنان منها قائمين لما زارها ابن جبير سنة ٥٨٠/١١٨٤. فالبيمارستان النوري وسع في القرن السابع (الثالث عشر)، وظل الزوار والمؤرخون يتأثرون به حتى في القرن التاسع (الخامس عشر). وقد انشئت بيمارستانات اخرى قرب باب البريد وفي الميدان الاوسط وفي الصالحية وفي النيرب.

كان المألوف ان يقوم الحكام ببناء البيمارستانات، لكن اثنين من بيمارستانات دمشق الستة ، على الاقل ، بناها الاثرياء . وكان بناة البيمارستانات ، مثل مؤسسي المدارس ، يتركون لهـــا من الاوقاف مـا يكون ايراده كافياً لصيانتها وضمان سيرها . فالبيمارستان القيمري في الصالحية كان ينتفع بريع قريتين وأملاك اخرى يبلغ مجموعها قريتين ونصف القرية ومنطقة فيها مطاحن وخمسة وثلاثين حانوتاً واسطبل وخانين وغير ذلك .

كانت اكثر البيمارستانات مقسومة الى موضعين : الواحد للرجال والآخر للنساء ، وكان هناك مقاصير للجراحة واخرى للامراض الداخلية وسواها لامراض العـــين . وكان للمجانين مقاصير مقتطعة منه . وكان الاطباء يشرفون على المقاصير ويخبرون الناظر الذي كان يعين لمثل هذا المنصب بعد تدبر دقيق للامر . وكان الناظر اذا ولي امر البيمارستان تلقى الاوامر والنصح في كيفية معاملة المرضى . ولم يكن من الضروري ان يكون الناظر نفسه طبيباً : فقد كان من المتعارف عليه ان العمل كان يتطلب مقدرة ادارية ومناقب خلقية اكثر من تطلبه حذق الطب .

أنشأ البيمارستان القيمري امير مملوكي من اصل كردي هو سيف الدين (تو ١٢٥٧/٦٥٥)، وكان على سفح الجبل ، ويشرف على دمشق ، حتى ان تيمور نفسه اعجبه المنظر من هنـــاك . وكان يتألف من قاعة كبيرة ترتكز على أعمدة ، يحيط بها من

جهتين من جهاتها مقاصير خاصة بالمرضى . وكان يصاقب هذه غرفتان كبيرتان (واحدة للرجال واخرى للنساء) مخصصتان للمصابين بالهيضة والاسهال . وكان ثمة مقصورة كبيرة تحفظ فيها الادوية على اختلاف انواعها . وكان للبيمارستان عيادة خارجية تفتح للجمهور يومي الاثنين والخميس من كل اسبوع ، وكان المرضى يعطون الادوية مجاناً . وكان مطبخ البيمارستان يعد الاطعمة العادية والاطعمة الخاصة للمرضى . وكان ثمة قسم للمجانين وبذلك يتم البناء المجمع . وكان القائمون على البيمارستان فيهم طبيب وكحال وصيدلي وممرضون وممرضات وخدم ، على رأسهم ناظر يشرف على المكان ويدير شؤونه . والجدول التالي يبيّن الموظفين وجعالاتهم .

الموظف	المرتب الشهري بالدراهم (للواحد)	حصة القمح الشهرية بالمكيال (للواحد)
الاطباء (٣)	٦٠ — ٧٠	من نصف الى واحد
ناظر	٤٠	نصف
كحال	٤٥	نصف
خدم (٣)	١٣	سدس
مساعدات	١٠	سدس
صيدلي	٢٦	ثلث
ناظر الوقف	٦٠	واحد (وواحد من الشعير)
امام	٤٠	ثلث
بناء	١٣	سدس
عتالون	٨	سدس

وقد تتبع بعض البيمارستانات مدارس طبية، مثل البيمارستان النوري حيث كان الاطباء يعنون بالمرضى ويدرسون الطب في بناء مجاور للبيمارستان. وكان تدريس الطب يتمتع بكثير من الحرية لانـــه لم يكن يخضع لرقابة الدولة. وقد الف مدرسو البيمارستان النوري واطباؤه ستة وثلاثين كتاباً في الطب — وهو عدد ضخم ينتجه معهد واحد.

وكان ابن علي الدخوار احد كبار الاطباء والمدرسين، وكان يدرس الطب في بيتـــه ايضاً، فلما توفي اوصى ببيته ليستعمل مدرسة للطب، مع وقفية كبيرة للانفاق على المدرس ومساعديه.

فاذا نحن نظرنا الى المعرفة الطبية من حيث قيمتها الاجتماعية، وان تطويرها كان عاملاً في تطور المجتمع في المدينة والبلاد، قلنا بان البيمارستان والمدرسة الطبية الملحقة به كانا مركزين لمثل هذا التطور، وذلك لانهما كانا حرين من التقليد.

إنا وان كنا عرجنا على قلعة دمشق وجامعها وميادينها واسواقها وضواحيها ومدارسها وبيمارستاناتها، فانه لا يصح اعتبار زيارتنا لها تامة ما لم نزر زواياها.

ان اتساع الدولة الاسلامية وسيطرتها على رقاع متعددة،

جعل من الضروري ان توضع اجزاؤها النائية، والاجزاء التي قد تتعرض لثورات داخلية ، تحت رقابة مستمرة . ومن هنا نشأ الرباط حيث كان يقيم المدافعون عن الدين والدولة الذين كان يتوجب عليهم ان يدفعوا الاذى عن الحدود او اماكن الاضطراب. والاربطة التي كانت تقوم في المدن والقصبات اصبحت، فيما بعد، ملتقى المتصوفين . فلما اخذ المتصوفة بتنظيم انفسهم طرقاً، منذ القرن الخامس (الحادي عشر) ، اقاموا اماكن خاصة باجتماعاتهم وهي التي اطلق عليها اسم زاوية او خانقاه ، والكلمة الاولى عربية اما الثانية فهي فارسية اصلاً . وكانت الزاوية في غالب الاحوال مكاناً يلجأ اليه اهل التقوى والورع . وعلى كل فانه منذ القرن السابع (الثالث عشر) اصبحت الكلمات الثلاث -- الرباط والزاوية والخانقاه -- تستعمل دون تفريق بحيث انها صارت تعني الشيء نفسه . ولم تكن دمشق لتشذ عن هذه القاعدة .

يبدو من الاطلاع على الروايات الكثيرة ان دمشق كان فيها في ايام المماليك ثمان وسبعون زاوية للرجال وزاويتان للنساء . ولم يكن يكلف المقيمون فيها ، سواء في ذلك اهل البلد والغرباء او المقيمون دوماً والضيوف ، انفسهم اي مشقة -- فقد كان رزقهم يأتيهم رغداً . فكانوا من ثمة يصرفون وقتهم كله في العبادة والتعلم ، اذ ان الزوايا كانت مراكز للتعليم ، شأنها في

ذلك شأن المدارس ، الا انها كانت اكثر انطواء ، حتى في الدروس الدينية . ومن المهم ان نتذكر انـــه ليس من السهل الفصل بين العلم والتقوى في الاسلام .

مرّ بنا ما قاله ابن جبير عن الزاوية بشكل عام ، فلنرافقه الآن في زيارة لزاوية اخرى ، لعلها من افخم ما عرفته دمشق من الزوايا . يقول الرحالة :

ومن اعظم ما شاهدناه لهم موضع يعرف بالقصر ، وهو صرح عظيم مستقل في الهواء ، في اعلاه مساكن لم ير اجمل اشرافاً منها ، وهو من البلد بنصف الميل ، له بستان عظيم يتصل به ، وكان متنزهاً لاحد ملوك الاتراك. فيقال: انه كان فيه احدى الليالي على راحة ، فاجتاز به قوم من الصوفية ، فهريق عليهم من النبيذ الذي كانوا يشربونه في ذلك القصر. فرفعوا الامر لنور الدين، فلم يزل حتى استوهبه من صاحبه ، ووقفه برسم الصوفية مؤبداً لهم [1] .

وقد كان في دمشق في ايام المماليك عدد من الطرق الصوفية الواسعة الانتشار في دنيا الاسلام ، على نحو ما عرف في غيرها

---

١ — رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٣ .

من المدن. وكان اشهرها القادرية والوفائية والقلندرية والنبوية التي كانت ابرزها واكثرها اتباعاً في دمشق .

كانت زاوية ابن داود اكبر زوايا الصالحية ، وكان فيها خزان للماء وعرصة متسعة ومسجد حسن البناء ومقاصير كثيرة للفقراء ومكتبة وموضع خاص بالنساء . وكان فيها معلموها وخطباؤها وكانت تعقد حلقات الذكر فيها اعاشي الخميس من كل اسبوع .

٥ السّكّان ومُشكلاتهم

كان رحالو العصور المتوسطة يعتبرون دمشق في المنزلة الثانية بعد القاهرة، والاوروبيون منهم كانوا كثيراً ما يذكرون ان سكانها اكبر عدداً من سكان أيٍّ من باريس او فلورنسة. ومع ان تقدير عدد السكان يختلف من كاتب الى آخر ، فانـــه من المعقول القول بان سكان دمشق كانوا حول مئة الف نسمة .

كان العرب الغالبية الساحقة من سكان دمشق ، وكانوا يستعملون العربية في البيت والمدرسة والسوق ، لكن جماعات من غير الناطقين بالضاد وفدوا على دمشق في ايام المماليك ، او لعلهم اتت بهم السلطات الحكومية عمداً . فالتركمان جاءوا ايام آل زنكي ان لم يكن قبلاً ، وجاء صلاح الدين بالاكراد كما ان الجنود الشراكسة والاتراك واكبوا الحكام وامراء الاجناد من المماليك .

كان اغلب السكان من المسلمين، الا ان فئات من المسيحيين واليهود كانوا يقطنون المدينة . وكان للمسيحيين حي خاص بهم في جنوب شرق المدينة على مقربة من باب توما ، كما ان اليهود كانوا يقطنون في قسم مماثل من المدينة جنوبي الشارع المستقيم

الممتد من باب الجابية الى باب شرقي. وقد قدر بنيامين الططيلي عدد اليهود بدمشق بنحو ثلاثة آلاف، « بينهم كثيرون من اهل العلم والثراء » ، كما انه يشير الى وجود نحو مئتين من السمرة . ومع انني لم اقف على اي تقدير للمسيحيين ، فالذي يبدو لي انهم كانوا اكثر عدداً من اليهود .

وقد وصف ابن جبير كنيسة دمشق العظمى فقال :

وفي داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم ، تعرف بكنيسة مريم ، ليس بعد بيت المقدس عندهم افضل منها . وهي حفيلة البناء ، تتضمن من التصاوير امراً عجيباً تبهت الافكار ، وتستوقف الابصار ، ومرآها عجيب ، وهي بأيدي الروم ، ولا اعتراض عليهم فيها [1] .

وقد ورد وصف للاماكن المعظمة عند المسيحيين في دمشق في كلام لرحالة من اهل القرن الثامن (الرابع عشر) ، جاء فيه ما يلي :

ثم دخلنا دمشق حول الظهر من اليوم التاسع من الشهر المذكور ، وهي مدينة كبيرة وجميلة ، فيها اشياء كثيرة شهيرة بديعة ، وهي تتفوق على كل البلاد التابعة للسلطان في

---

١ — رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٢ .

كل شيء . وذكر دمشق هناك مثل ذكر باريس عندنا . واول ما يذكر هو انه على بعد نصف ميل من دمشق نجد المكان الذي ضرب فيه المسيح القديس بولس قائلاً له شاول، شاول لماذا تضطهدني ؟ وفي سور دمشق يوجد ايضاً النافذة التي هرب منها بعد ان قبض عليه اليهود وسجنوه ، وبعدها ذهب القديس بولس الى القدس ليبحث عن القديس بطرس. وفي دمشق هذه يوجد بيت حنانيا الذي ارشد الرب القديس بولس بوجوب الذهاب اليه ، لما ضربه الرب كما ذكرنا . وهناك عمده حنانيا . وعلى بعد غلوتين من اسوار دمشق يوجد حقل يدفن فيه المسيحيون الذين يتوفون في المدينة ، سواء في ذلك الكاثوليك والارثوذكس والارمن واصحاب الزنار. ويوجد في وسط الحقل وبين القبور حجر من الرخام الابيض مربع ، ذراع في ذراع تقريباً ، يقال انه الحجر الذي قطع عليه رأس القديس جرجس. والمسيحيون جميعهم يحترمون المكان احتراماً كبيراً ، ويذهبون الى هناك يومياً، وخاصة في ايام الاعياد المسيحية ، ليقبلوا الحجر اعظاماً له. والحجاج جميعهم يأخذون قطعاً منه . ويقال ان ايوب ولد في دمشق هذه في سفح جبل يبعد خمسة اميال عنها ، ويرى من جميع انحاء دمشق ، ومثل ذلك يقال في حقل قريب من الطريق الممتد خارج دمشق حيث قتل قابيل اخاه هابيل .

ثم على بعد نحو اثني عشر ميلاً من دمشق يوجد كنيسة معظمة جميلة ودير، والدير للروم الارثوذكس وخاص بالنساء — ولم نجد غيره ديراً خاصاً بالنساء في كل اسفارنا في تلك النواحي . والكنيسة والدير معظمان وجميلان ويشبهان ما عندنا هنا الى حد كبير . والسطح وظاهر الجدران من الآجر ، والمكان يعظمه المسيحيون والمسلمون كثيراً .... وفي المكان ايقونة لسيدتنا التي يؤمن بها الكثيرون هناك .... ومن هذه الايقونة ينز زيت تعطيه الراهبات الى الحجاج ، وهو معظم عندهم . والمكان يقع في بلاد جميلة غنية . وقضينا هناك ليلة ونصف يوم ثم عدنا الى دمشق [١] .

كان في دمشق في القرنين الثامن والتاسع (الرابع عشر والخامس عشر) جالية اوروبية صغيرة تتكون من رجال اعمال من بنادقة وقطلونيين وجنويين وفلورنسيين وكالابريين وفرنسيين — وقد ذكر بعض الرحالين انهم كانوا كثيرين . كان لهم مخازن في المدينة فيها الاقمشة المنوعة، من الحرير والساتان والقطيفة والنحاس ، وغير ذلك من المتاجر التي يتطلبها السوق. وكان كثيرون من التجار حريصين على شراء الافاويه والطيوب التي كانت تشحن الى اوروبة عبر بيروت . وكان للجماعات

---

١ — انظر غوتشي ، ص ١٤٠ — ١٤١ .

قناصل او مقدمون يهتمون بشؤونهم ، ونحن نعرف انه كان ثمة على الاقل قنصل لقطلانية ومقدم للبندقية . وكان اما هؤلاء او بعض كبار التجار يستضيفون كبار الزوار الاوروبيين الذين يقدمون دمشق .

كان المسيحيون واليهود في دمشق ، شأنهم في ذلك شأن اهل الكتاب في الدولة الاسلامية ، يعتبرون ذميين ، يدفعون الجزية ولا يولون اعمالاً ذات مسؤولية . وحتى ما اشترعه القرآن الكريم والسنة النبوية من حق حماية اهل الكتاب لم ينقذهم دوماً من بعض الظلم . وقد كان الناس، في ايام المماليك، يتعرضون للكثير من مصادرة الاملاك وفرض الغرامات من قبل الدولة او السلطان وسوء المعاملة لاسباب منوعة . وكان المسيحيون واليهود معرضين لذلك ، على ان مثل هذه المغارم كانت تقع على المسلمين ايضاً . وقـــد يكون حظ المسيحيين الاجانب خيراً من حظ ابناء البلد اذا كانت ثمة معاهدة مع دولهم تحميهم، ولو ان الرعاع لم يتقيدوا دوماً بمثل هذه الاتفاقات. ومن ثم فاننا نقرأ بـــين الحين والآخر عن صبيان اساءوا الى الزوار ، ثم اختفوا عن اعين رجال الدولة . ويبدو ان احدى الوسائل التي لجأت اليها الدولة لتوفير الحماية للتجار المسيحيين الاجانب هي ان تحملهم على البقاء في بيوتهم ليلاً . يقول برتراندون دو لا بروكييه : « كان موظفون مخصوصون يقومون

باقفال منازل التجار المسيحيين ، ثم يفتحونها في الصباح ، عندما يروق لهم ذلك » .

. . .

يشتهر اهل دمشق دوماً بلياقتهم في سلوكهم ، سواء اكان ذلك فيا بينهم ام مع الغرباء . وقد تأثر كثيرون ممن اقاموا بينهم بما فيهم من اللطف والاهتام بالآخرين . والانطباع الذي وصفه كل من ابن جبير وابن بطوطة (وهذا كان قد جاب في طول الارض وعرضها وتنقل براً وبحراً) حري بان ينقـــل . فقد قال ابن جبير :

ومخاطبة اهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد ، وبامتثال الخدمة ، وتعظيم الحضرة ، واذا لقي احد منهم آخر مسلماً يقول : جاء المملوك او الخادم برسم الخدمة ، كناية عن السلام ، فيتعاطون المحال تعاطياً ، والجدّ عندهم عنقاء مغرب ، وصفة سلامهم ايماء للركوع او السجود ، فترى الاعناق تتلاعب بين رفع وخفض ، وبسط وقبض ، وربما طالت بهم الحالة في ذلك ، فواحد ينحطّ وآخر يقوم ، وعمائمهم تهوي بينهم هوياً . وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء ، وعند استعراض رقيق الاماء ، فيا عجباً لهؤلاء الرجال ،

كيف تحلّوا بسمات ربات الحجال ، لقد ابتذلوا انفسهم فيما تأنف النفوس الابية منه، واستعملوا تكفير الذمّي المنهيّ في الشرع عنه! لهم في هذا الشأن طرائق عجيبة في الباطل....

ومن عجيب حال الصغير عندهم والكبير ، بجميع هذه الجهات كلها ، انهم يمشون وايديهم الى خلف ، قابضين بالواحدة على الاخرى ، ويركعون للسلام على تلك الحالة المشبهة بأحوال العناة مهانة واستكانة، كأنهم قد سيموا تعنيفاً ، واوثقوا تكتيفاً ، وهم يعتقدون تلك الهيئة لهم تميزاً لهم في ذوي الخصوصية وتشريفاً ، ويزعمون انهم يجدون بها نشاطاً في الاعضاء، وراحة من الاعياء، والمحتشم منهم من يسحب ذيله على الارض شبراً ، او يضع خلفه اليد الواحدة على الاخرى ، قد اتخذوا هذه المشية بينهم سنناً ، وكل منهم قد زيّن له سوء عمله ، فرآه حسناً ، استغفر الله منهم! فان لهم من آداب المصافحة عوائد ، تجدّد لهم الايمان، وتستوهب لهم من الله الغفران، لما بشّر به الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في المصافحة ، فهم يستعملونها اثر الصلوات ، ولا سيما اثر صلاة الصبح ، وصلاة العصر . واذا سلم الامام ، وفرغ من الدعاء ، اقبلوا عليه بالمصافحة ، وأقبل بعضهم على بعض يصافح المرء عن يمينه وعن يساره ، فيتفرقون عن مجلس مغفرة ، بفضل الله عز وجل . وقد تقدم الذكر فيما سلف من هذا التقييد انهم

يستعملونها عند رؤية الاهلة ، ويدعو بعضهم لبعض ، بتعرّف بركة ذلك الشهر ويمنه واستصحاب السعادة والخير فيه ، وفيما يعود عليه من امثاله، وتلك ايضاً طريقة حسنة، ينفعهم الله بها ، لما فيها من تعاطي الدعوات ، وتجديد المودّات ، ومصافحة المؤمنين بعضهم بعضاً رحمة من الله تعالى ونعمة [1] .

ويقول ابن جبير ايضاً عن اهتمام القوم بالاوقاف المحبوسة على العناية بالغرباء ما يلي :

وللربوة المباركة اوقاف كثيرة ، من بساتين وارض بيضاء ورباع . وهي معينة التقسيم لوظائفها : فمنها ما هو معين باسم النفقة في الادم للبائتين فيها من الزوار ، ومنها ما هو معين للأكسية برسم التغطية بالليل ، ومنها ما هو معين للطعام ، الى تقاسيم تستوفى جميع مؤنها ، ومؤن الامين الراتب فيها برسم الامامة ، والمؤذّن الملتزم خدمتها، ولهم على ذلك كله مرتب معلوم في كل شهر. وهي خطة من اعظم الخطط .

والامين فيها الآن من بقيـــة المرابطين المسّوفيين ومن اعيانهم ، يعرف بأبي الربيـع سليمان بن ابراهيم بن مالك ،

---

١ — رحلة ابن جبير ، ص ٢٨٥ — ٢٨٦ .

وله مكانة من السلطان ووجوه الدولة ، وله في الشهر خمسة دنانير حاشا فائدة الربوة ، وهو متسم بالخير ومرتسم به ، وهو متعلق بسبب من اسباب البر في ايواء اهل الغرب من الغرباء المنقطعين بهذه الجهات، يسبب لهم وجوه المعايش من امامة في مسجد ، او سكنى بمدرسة تجرى عليه فيها النفقة، او التزام زاوية من زوايا المسجد الجامع يجبى اليه فيها رزقه، او حضور في قراءة سبع ، او سدانة مشهد من المشاهد المباركة يكون فيه ، ويجري عليه ما يقوم به من اوقافه ، الى غير ذلك من الوجوه المعاشيّة ، على هذه السبيل المباركة مما يطول شرحه . فالغريب المحتاج هنا ، اذا كان على طريقة الخير ، مصون محفوظ غير مريق ماء الوجه . وسائر الغرباء ممن ليس على هذه الحال ، ممن عهد الخدمة والمهنة ، يسبّب له ايضاً اسباب غريبة من الخدمة : اما بستان يكون ناطوراً فيـــه ، او حمّام يكون عيناً على خدمته وحافظاً لأثواب داخليه ، او طاحونة يكون اميناً عليها ، او كفالة صبيان يؤديهم الى محاضرهم ويصرفهم الى منازلهم ، الى غير ذلك من الوجوه الواسعة . وليس يؤتمن فيها كلها سوى المغاربة الغرباء ، لانهم قد علا لهم بهذا البلد صيت في الامانة ، وطار لهم فيها ذكر، واهلها لا يأتمنون البلديّين . وهذا من الطاف الله تعالى بالغرباء ، وله الحمد والشكر على ما يولي عباده .

وان شاء احد المتعلقين باسباب المعارف التعرض هنالك

للسلطان ، يقبله ويكرمه ويرتّبه ، ويجري عليه بحسب قدره ومنصبه ، قد طبعت هذه البلاد وملوكها على هـــذه الفضائل قديماً وحديثاً. وقد تسلسل بنا القول الى غير الباب الذي نحن فيه ، والحديث ذو شجون ، والله كفيل بحسن العون ، لا رب سواه [1] . . . .

ثم يقول :

ومرافق الغرباء بهذا البلد اكثر من ان يأخذها الاحصاء، ولا سيما لحفّاظ كتاب الله عز وجل ، والمنتمين للطلب . فالشأن بهذه البلدة لهم عجيب جداً . وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم ، لكن الاحتفال بهذه البلدة اكثر ، والاتساع اوجد . فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا ، فليرحل الى هذه البلاد ، ويتغرّب في طلب العلم ، فيجد الامور المعينات كثيرة . فأوّلها فراغ البال من امر المعيشة ، وهو اكبر الاعوان وأهمها ، فاذا كانت الهمة فقد وجد السبيل الى الاجتهاد، ولا عذر للمقصّر الا من يدين بالعجز والتسويف، فذلك من لا يتوجه هذا الخطاب عليه ، وانما المخاطب كل ذي همة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي ، فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك ، فادخل ايها المجتهد بسلام ، وتغنّم الفراغ والانفراد قبل علق الاهل

---

١ – رحلة ابن جبير ، ص ٢٦٦ – ٢٦٧ .

والاولاد وتقرع سن الندم على زمن التضييع ، والله يوفق ويرشد ، لا إله سواه ، قد نصحت ان ألفيت سامعاً . وناديت ان اسمعت مجيباً ، « ومن يهد الله فهو المهتد » ، جلّت قدرته ، وتعالى جدّه . ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها الا مبادرة اهلها لاكرام الغرباء، وايثار الفقراء، ولا سيا اهل باديتها ، فانك تجد من بدار الى برّ الضيف عجباً ، كفى بذلك شرفاً لها . وربما يعرض احدهم كسرته على فقير فيتوقف عن قبولها ، فيبكي الرجل ويقول : لو علم الله فيّ خيراً لأكل الفقير طعامي . لهم في ذلك سر شريف .

ومن عجيب امرهم تعظيمهم للحاج ، على قرب مسافة الحج منهم ، وتيسير ذلك لهم ، واستطاعتهم لسبيله . فهم يتمسحون بهم عند صدورهم ، ويتهافتون عليهم تبركاً بهم [١] .

وقد كتب ابن بطوطة عن الموضوع ذاته لكنه وضع النبرة على الوقف واهميته فقال :

والاوقاف بدمشق لا تحصر انواعها ومصارفها لكثرتها: فمنهـــا اوقاف على العاجزين عن الحجّ يعطى لمن يحج عن

---

١ – رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٤ – ٢٧٥ .

الرجل منهم كفايته ، ومنها اوقاف على تجهيز البنات الى ازواجهن وهن اللواتي لا قدرة لاهلهنّ على تجهيزهنّ ، ومنها اوقاف لفكاك الاسارى، ومنها اوقاف لابناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزوّدون لبلادهم ، ومنها اوقاف على تعديل الطرق ورصفها لان ازقـّة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمرّ عليها المترجّلون ويمر الركبان بين ذلك ، ومنها اوقاف لسوى ذلك من افعال الخير . حكاية : مررت يوماً ببعض أزقـّة دمشق فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفه من الفخار الصيني وهم يسمّونها الصحن فتكسّرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم اجمع شقفها واحملها معك لصاحب اوقاف الاواني فجمعها وذهب الرجل معه اليه فأراه إياها فدفع له مــــا اشترى به مثل ذلك الصحن ، وهذا من احسن الاعمال فان سيّد الغلام لا بدّ له ان يضربه على كسر الصحن او ينهره وهو ايضاً ينكسر قلبه ويتغـيّر لاجل ذلك فكان هذا الوقف جبراً للقلوب جزى الله خيراً من تسامت همّته في الخير الى مثل هذا . واهل دمشق يتنافسون في عمـــارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد . وهم يحسنون الظنّ بالمغاربة ويطمئنون اليهم بالاموال والاهلين والاولاد . وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بدّ ان يتأتـّى له وجه من المعاش من امامة مسجد او قراءة بمدرسة او ملازمة مسجد يجيء اليه فيه رزقه او قراءة القرآن او خدمة مشهد

من المشاهد المباركة او يكون كجملة الصوفية بالخوانق تجرى له النفقة والكسوة . فمن كان بها غريباً على خير لم يزل مصوناً عن بذل وجهه محفوظاً عمّا يزري بالمروّة . ومن كان من اهل المهنة والخدمة فله اسباب أخر من حراسة بستان او أمانة طاحونة او كفالة صبيان يغدو معهم الى التعليم ويروح . ومن أراد طلب العلم او التفرّغ للعبادة وجد الاعانة التامة على ذلك . ومن فضايل اهل دمشق انه لا يفطر احد منهم في ليالي رمضان وحده البتة ، فمن كان من الامراء والقضاة والكبراء فانه يدعو اصحابه والفقراء يفطرون عنده ، ومن كان من التجار وكبار السوقة صنع مثل ذلك ، ومن كان من الضعفاء والبادية فانهم يجتمعون كل ليلة في دار احدهم او في مسجد ويأتي كل احد بما عنده فيفطرون جميعاً [1] .

كان المماليك يحبون الفخامة والعظمة وكانوا حريصين على عرض ذلك باسلوب لا يجارى ، سواء في الاقامة والرحيل وفي الحرب والسلم وفي دور القضاء واقامة الولائم . فاذا هبط السلطان دمشق كان يحرص على ان يرى في دمشق ما ألفه في القاهرة . فاذا صلى الجمعة في الجامع الاموي الكبير استوثق بنفسه من ان المقصورة زينت على خير ما يمكن ووضع حولها

---

١ – رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٣٧ – ٢٤١ .

الحرس الضروري ، وان مظلته الصفراء كانت ترفع فوق رأسه اذ يجتاز البلد في موكبه الى الجامع ، وان السرج المطرز بالذهب كان يستعمل ، والا فانه يحمل امامه اذا مشى ، وان الرنوك وعليها ألقابه ونقوشه كانت ترفع امامه ، وان العدد المألوف من الطبول والكوسات كانت ترافق موكبه . اما في دار العدل فكان السلطان يجلس على كرسي يرتفع عن مقاعد الآخرين ، يحف به الوزراء والامراء والقضاة جلوساً على الجانبين .

وكان نائب السلطنة في دمشق يحذو حذو سيده : فكانت مواكبه مثالاً للفخامة . فاذا ذهب الى ميدان الخيل او ميدان تحت القلعة او المزة او اي من الميادين في الضواحي ، حفّ به الامراء يرتدون الاقبية الحمراء ويعتمرون العمائم الانيقة ويمتطون صهوات الجياد المكسوة بالسروج الجميلة يتدلى من جوانبهـــا القماش المزركش الثمين . هناك كان نائب السلطنة وحاشيته يدربون الجياد او يرشقون السهام او يلعبون بالصوالجة . فاذا بدأوا العودة اخـــذ مرافقو النائب يترجلون ، بدءاً بصغار الضباط ، فئة بعد فئة عند اماكن معينة ، حتى اذا وصل الموكب دار النيابة لم يبق سوى النائب ممتطياً صهوة جواده . ثم يدخل القاعة الكبرى حيث يجد كرسياً خاصاً مجللاً بالحرير الاصفر موضوعاً على منصة فيتخذ منه مكان جلوسه ، ويجلس القضاة الى يمينه واصحاب المناصب الادارية الى يساره ، ويتوزع الباقون اماكنهم جلوساً او وقوفاً .

وعندما تقدم اليه المظـــالم في رقاع ينقلها الموظفون من اصحابها ، فينظر فيها ويبدي رأيه الذي يدونه كاتب قائم لذلك ، ثم يعهد الى اصحاب الوظائف الخاصة بتنفيذ احكام النائب . وكان يتلو ذلك ، في العادة ، سماط يشترك فيـــه الموجودون جميعهم . فاذا فرغ القوم من الطعام تفرقوا الا خاصة النائب من النصحاء والامراء وسواهم من اصحاب الوظائف وذلك للتحدث في امور الحكومة وقضاياها .

كانت دمشق ، ولها من الموارد ما ورد ذكره، تنعم بثروتها التي لم تكن ولا شك موزعة توزيعاً سوياً . وما اكثر ما كانت الاعياد العامة مناسبات لاقامة السماط . فقـــد احتفى المظفر (١٣٠٨/٧٠٨ - ١٣٠٩/٧٠٩) بعيد المولد النبوي فقـــدم على سماطه خمسة آلاف من الخرفان وعشرة آلاف من الطيور المحمرة ومئة الف زبدية من الخضار المطبوخة وثلاثون الف صحن من الحلوى ، ودعي القوم الى الاكل . وقد خلف تنكز ، الذي حـــكم دمشق بضع سنوات ، ثروة بلغت ٧٣٠٫٠٠٠ درهم و ٢٫٧٠٠٫٠٠٠ دينار فضـــلا عن المجوهرات . وفي سنة ١٢٣٦/٦٣٣ توفي الكمال التاجر فترك ثروة قيمتها ٣٠٠٫٠٠٠ دينار ومئة لؤلؤة كبيرة . وفي سنة ١٣٠٠/٦٩٩ فرض قازان على دمشق اربعة ملايين درهم ، ولم تجد المدينة صعوبة في دفع المبلغ ، لولا ان الوسطاء طالبوا بمبالغ ضخمة لانفسهم .

من لغو القول ان الاشخاص الذين ذكروا كانوا يمثلون الطبقة الحاكمة التي لم تتورع عن اللجوء الى شر الوسائل لجمع الثروة . والتجار كانوا يسيطرون على الاسواق فيفيدون من الربح العادي كما كانوا يفيدون من تقلب الاسعار . وقد كانوا يخفون المتاجر احياناً ، بسبب نقص الغلال او غزو خطير او طلب التجار الاجانب للبضائع ، ثم يبيعونهــــا باسعار مرتفعة او في السوق السوداء . ولكن ماذا كانت حال المواطن العادي الذي كان يسعى السعي الحثيث لتحصيل ما يقوم باوده ؟ الجدول التالي يبين الحاجة الشهرية لاسرة دمشقية عادية ، مكونة من الابوين واربعة اولاد ، في ايام المماليك ، باستثناء ثمن الثياب واجرة البيت .

المادة	الكمية بالكيلو	الثمن (بالدولار)
القمح	٧٥	٠و٩٥
الارز	١٢	٠و٢١
القطاني	١٢	٠و١٨
اللحوم	١٢	٠و٨٥
السكر	٧	٠و٩٠
الزيت	١٠	٠و٢٥
الخضار	—	٠و٣٠
	المجموع	٣و٦٤

ومن ثم فان رب العائلة كان عليه ان يحصل بين خمسة وستة من الدولارات شهرياً كي يؤمن حاجات افراد الاسرة .

من المؤسف انني لم اتمكن من العثور على ارقام عن اجـــور العمال ، مهرة كانوا او شبه ذلك ، ولكن الوقف ، كان في غالب الاحيان ، يبين فيه عادة شروط الوقفية والمبالغ المتوجب دفعها الى من يقومون بالاعمال في المدرسة او الجامع او البيمارستان . وقد لخصت هذه المعلومات في الجدول التالي :

اصحاب العمل	الاجرة الشهرية (بالدولار)
الطبيب	٢١,٠٠
المدرس	٥,٦٠
الامام	٢,٨٠
المؤذن	٢,١٠
المحدث	٢,١٠
المعيد	١,٤٠
التلميذ	٠,٧٠
القارىء	١,٠٠
الحمّال	١,٤٠

من الواضح ان الطبيب هو الوحيد الذي يمكنه ان يعيش براحة ، واما المدرس فقد يخرج من اجرة الشهر لا عليه ولا له .

الا انه يجب ان نذكر ان اكثر اصحاب الوظائف الصغرى كان يصرف لهم الخبز ايضاً ، ولعلهم كانوا يعملون بعض الوقت في هذه الوظائف. ومع ذلك فمما لا شك فيه انهم لم يكونوا يحسدون على ما كانوا فيه .

فضلاً عن التجار واولئك الذين يعيشون من الوقف ، كان ثمة عمال ، مهرة وغير مهرة ، وفلاحون وموظفون في الدولة (عدا القضاة) واعداد اخرى من الناس الذين تكون منهم سكان دمشق . ومع اننا لا نملك معلومات عن هؤلاء ، فانه يبدو ان المؤسسات الخيرية كانت تؤوي عدداً كبيراً من الفقراء ، كما ان هؤلاء كانوا يجدون اعمالاً صغيرة كثيرة يقومون بها لقاء مكافآت زهيدة تعين على المعيشة . ومع ذلك فمن الواضح ان عدد الذين كانوا ينعمون بالحياة من سكان « مدينة دمشق النبيلة » هم قلة . وكان من حسن حظ دمشق ان اماكن المتعة الطبيعية في ضواحي دمشق كانت توفر للناس ، كما لا تزال توفر لهم اليوم ، السرور والحبور لقاء القليل من النفقات .

عرفت دمشق في زمن المماليك ، كما عرفت ذلك من قبل ، اياماً عسيرة في حياة السكان . فالجوع والقحط والحملات الكثيرة كانت تحمل التجار على اخفاء ما عندهم فيؤدي ذلك الى ارتفاع سريع في الاسعار، الامر الذي لم يكن من الممكن السيطرة عليه دوماً . والجدول التالي هو خلاصة تبين ارتفاع الاسعار في المواد

الغذائية الاساسية في دمشق في القرنين الثامن (الرابع عشر) و التاسع (الخامس عشر) . وهذه الارقام مأخوذة عن العمري والقلقشندي . والجدول يبين الارتفاع بالنسبة الى الاحوال العادية .

المـــادة	ارتفاع الاسعار (بالنسبة المئوية)
القمح	٧٠٠ الى ١و٠٠٠
الشعير	٦٠٠ الى ١و٠٠٠
الارز	٣٥٠ الى ٤٠٠
اللحوم	٥٠٠ الى ١و٨٠٠
السكر	٥٠٠
الطيور	٦٠٠

٦ ادارۃ المدینۃ

كان * الغالب على المدن الاسلامية انها لم تعتمد الانتخاب سبيلاً لاختيار الهيئات او الموظفين الذين يشرفون على شؤونها ، فلا الاسلام بحد ذاته شرّع في هذه الناحية ، ولا نشأت اي من هذه المنظمات نتيجة للتجارب التي مرت المدن بها . يجب ان نتذكر ايضاً ان المدن الاسلامية في العصور المتوسطة لم تجاهد في سبيل الحصول على حريتها، على نحو ما فعلت نظيراتها في اوروبة، ومن ثم فلم تنشأ في الاولى المؤسسات البلدية التي عرفتها الفئة الثانية . فقـــد كان موظفو المدينة الاسلامية اجمعين يختارهم السلطان . وفي ايام المماليك كانت هذه السلطة ، اي اختيار الموظفين ، يمارسها اما السلطان مباشرة او نائبه . ولم تكن دمشق لتشذ عن ذلك : فجميع اصحاب الوظائف الذين كانوا يشرفون على النشاطات المختلفة ويدبرون امورها المدنية ، كانوا موظفين تعينهم الدولة .

فما هم الموظفون الذين عرفتهم دمشق ؟ وبعبارة اخرى من

---

* انظر زيادة : الحياة المدينية في سورية تحت حكم المماليك (بالانجليزية)، الفصل السابع .

كان يحكم المدينة ويقوم على حراستها ويعنى بامورها وينظر في اسواقها ويدير القضاء فيها .

كان في دمشق والٍ يعيّنه السلطان ، لكنه كان تابعاً لنائب السلطنة . كانت واجبات الوالي تشمل الحفاظ على الامن الامر الذي كان يشرف عليه شخصياً عندما يتفقد الحارات في الليل. وكان يترتب عليه ان يداور العيارين والشطار . وكانت المدينة والضواحي ، باستثناء القلعة ، تحت امرته . وكان للوالي اعوان يتنقلون باستمرار ، اذ لم تكن ثمة مكاتب يقيم فيها هؤلاء . وكان الشرطة وصاحبهم تحت اشرافه ، الا انه كثيراً ما كان الوالي نفسه صاحب الشرطة . وكثيراً ما كان صاحب الشرطة يسمح له بان يتميز عن غـــيره بلباس خاص للرأس ، وبذلك يسهل التعرف عليه. وكان كل من يلقى عليه القبض يحضر الى صاحب الشرطة اولاً للتحقيق في أمره ، ومع ان صاحب الشرطة لم تكن له رتبة قضائية فانه كان يتصرف في القضايا التي لم يكن فيها خلاف للشريعة .

كانت دمشق ، شأنها في ذلك شأن اي من المدن الكبيرة في جميع الازمان ، يقطنها عدد كبير من الذين يعبثون بالامن ويزعجون السكان . ولما كان على الوالي ان يراقب هؤلاء مراقبة تامة ، فانه كان يحتفظ بمساعدين ، بالاضافة الى الشرطة ، وكان يلجأ الى وسائل متعددة للقيام بمسؤولياته . فالاحداث كانوا

يوضعون اثناء الليل في الاماكن الهامة ، وكان شيخ الاحداث مسؤولاً عن النظام في محلته .

وكانت اكثر شوارع دمشق منارة في الليل ، وكان ثمة جماعة من الناس ، يسمون الضوئية ، كان عليهم ان يحفظوا المصابيح مشتعلة باستمرار . وقد اعتاد سكان دمشق سماع طبول القلعة تضرب ثلاث مرات في الليلة الواحدة ، لا من اجل تذكير الناس بالاوقات فحسب ، بل من اجل تنبيه الحرس الى وجوب اليقظة الدائمة .

وعندما كان يقع جرم قتل كان الوالي كثيراً ما يلجأ الى ما يصح تسميته بالعقوبة المشتركة ، بمعنى انه يفرض على سكان الحارة ان يدفعوا دية القتيل ، بالاضافة الى غرامة اذا عجزوا عن اظهار القاتل . وكان على الوالي ان يتأكد بان احكام الشرع فيما يتعلق ببيع الخمور جارية تماماً . كما انه كان مسؤولاً عن سلامة الحجاج الى نحو خمسين ميلاً تمتد جنوبي دمشق .

وكان تنفيذ احكام الشرع في انحاء المدينة من عمل القضاة ، الذين كانوا يقومون بذلك تحت اشراف قاضي قضاة المذهب . وقد اقتصر الايوبيون على تعيين قاضي قضاة شافعي واستمر الحال على ذلـــك ايام المماليك حتى سنة ١٢٦٦/٦٦٤ اذ أمر بيبرس بوجوب تعيين اربعة من قضاة القضاة ليس في القاهرة

فحسب ، ولكن في دمشق وحلب ايضاً ، ومنذ ذلك الوقت اصبح لكل من المذاهب السنية الاربعة قاض للقضاة ، وكان القضاة مرتبطين به . وكثيراً مـــا كان منصب قاضي قضاة المالكية اسمياً . وقد كانت دمشق ، بسبب اتساع رقعتها وكثرة سكانها ، بحاجة الى عدد كبير من القضاة للنظر في القضايا المختلفة .

كان القاضي يحكم بالشريعة وكان ينظر في جميع القضايا ، التي كان غالبها يتعلق بالامور الشخصية . اما القضايا التجارية فكانت من اختصاص الادارة وكان ينظر فيها عرفاً ، لا بحسب قانون معين ، خاصة اذا كان الاجانب طرفاً فيها . وكان المسيحيون يلجأون الى المحاكم الكنسية في القضايا الدينية ، واليهود كانوا يعرضون مثل هذه القضايا على محاكمهم الدينية .

ومن المؤسسات التي عرفتها دمشق في ايام المماليك الشهود ، الذين كانوا يعينون القاضي في تقرير قضايا العدالة ، وكانوا اشبه ما يكون بكتاب العدل ، خاصة بين القرن الثاني (الثامن) والقرن الرابع (العاشر) ، وقد يحلون الخصومات الصغيرة بانفسهم . ومن ثم فقد كان ارتباطهم بالقاضي وثيقاً ، فهو الذي يعينهم وهو الذي يعزلهم . ويبدو ان هذا النظام ، الذي كان قد اندثر او كاد ، عادت اليه الحياة في القرن السابع (الثالث عشر) وشاع استعماله . فلما ولي الجمال المصري قاضياً في دمشق

(سنة ٦١٧/١٢٢٠) عمد الى جمع الشهود ايام الثلاثاء والجمعة من كل اسبوع في صحن العادلية ، وبذلك كان باستطاعة من اراد التثبت من وثيقة او فض نزاع ، ان يتم له ذلك حالاً . ولم يكن يتطلب في الشهود مقدرة خاصة ، الا انهم كانوا دوماً يختارون من الصالحين . وقد كان الكثيرون من الشهود في دمشق من الوراقين والمجلدين الذين كانوا يذهبون الى دور العدل ، بعد الفراغ من اعمالهم ، للقيام بواجباتهم القضائية . وقد اصبح من المألوف فيما بعد ان يجتمع الشهود في اربعة اماكن في دمشق هي: تحت الساعات والخزانة وباب الشامية وسوق ساروجا .

وكان المفتي بين الرجال المعنيين بالنظر في شؤون القضاء ، وعمله ان يوضح بعض قضايا الشرع متى اشكلت او استعصت . وقد كان لكل من حلب ودمشق مفتٍ ، وكانت الولاية بكاملها تقع في نطاق اختصاصه . وقد يكلف مفتي دمشق بالاجابة عن اسئلة تحول اليه من ولاية مجاورة ، ان لم يكن فيها مفتٍ . وعندنا قضية طريفة من هذا النوع ترجع الى القرن الثامن (الرابع عشر) . فقد حدث ان فئة من التجار الاوروبيين نزلوا عكا سنة ٧٥١/١٣٥٠ ، وسمح لهم ان يحتفلوا بعيد الفصح في المدينة . وقد اعتدي عليهم ، وتلا ذلك بعض الاضطراب الذي وقع بينهم وبين اهل المدينة ، فالقي القبض عليهم ، لكن حاكم عكا لم يعرف على اي اساس يجب ان يحاكموا

– ايحاكمون كما لو كانوا مسيحيين من ابناء البلاد ، ام على اساس انهم يحملون الامان لانهم جاءوا البلاد تجاراً ؟ فاستنجد بوالي صفد ، الذي كانت عكا تابعة له ، ولكن الوالي لم يستطع ان يقطع برأي، وكان منصب المفتي يومها خالياً ، فبعث هو بدوره بالقضية الى مفتي دمشق ليبدي فيها رأيه . وقد اصدر السبكي ، وكان مفتي دمشق يومها، فتوى تتلخص بانه لما كان من مصلحة الدولة الاسلامية ان تظل علاقات السلطان حسنة مع المدن التي جاء منها هؤلاء التجار ، فانه يجب ان ينظر اليهم على انهم كانوا يتمتعون بالامان ، وبذلك كانت العقوبة التي انزلت بهم خفيفة نسبياً ، ثم اطلق سراحهم .

ومن طريف ما كان يحدث انه عندما كانت تخلو المدينة ممن ينظر في امرها بسبب هرب واليها او اختفائه ابان حملة شديدة او هجوم عنيف ، كان يجتمع بعض اعيانها ويهتمون بقضايا المدينة وادارتها. فلما دخل رجال قازان دمشق سنة ١٢٩٩/٦٩٨، هرب النظار ، بما في ذلك الوالي ، فاجتمع القاضي وشيخ التداريس ونفر من العلماء وبعض شيوخ الحارات وحملوا العبء انفسهم . ولم يكن ثمة قانون او عرف يصح اتباعه ، ولعل هذه الحادثة لم تكن فريدة في نوعها .

وكانت المصالح الصغرى في المدينة يرئسها موظفون يعرف واحدهم باسم الشادّ . وكان الوالي من المماليك ، وكذلك كان

صاحب الشرطة في الغالب ، ان لم يكن هو الوالي نفسه، ولكن القاضي والشاد وغيرهما من الموظفين كانوا من ابناء البلاد . فقد كان ثمة شادّ الزكاة ، الذي كان اليه النظر في جمع الزكاة من كل مسلم مكلف بدفعها ، كما انه كان يترتب عليه ان يجمع من تجـــار العطارة المترتب عليهم من العشور . وكان هناك شاد للاوقاف ، وكان عليه ادارة اوقاف المدينة، ان لم يكن الواقف قد اشترط سبيلاً خاصاً لادارة وقفه . وكان هذا المنصب من اهم مناصب المدينة بسبب الاوقاف الكثيرة المنتشرة في دمشق.

وكان ثمـــة اربعة موظفين أخر هم شادّ مسابك الزجاج والحديد والنحاس ، وشاد دار البطيخ والفاكهة وشاد مصانع السكر وشاد العشور. وكانت المسابك ملكاً للسلطان، ومعناها ان الشاد كان عليه ان يهتم بمصلحة الدولة ، فيحتفظ بالقيود الصحيحة للمتاجر كلها . وكانت اسواق الفاكهة مورداً هاماً للوالي ، فكان على الشاد ان يتأكد من ان الرسوم كانت تجمع بانتظام . وكان يتحتم على شادّ العشور ان يضمن دفع الرسوم الجمركية المترتبة على التجار الاجانب .

ويبدو انه كانت لسوقين بعينهما مكانة خاصة في عين الوالي، لا لانهما كانتا تزودان الخزينة بالكثير من مواردها فحسب ، بل لارتباطها بالشؤون العسكرية وامور الامن وهما : سوق الخيل وسوق الرقيق . اما الاولى فلان الجند كانوا بحاجة دائمة الى

الخيل ، وهي عدة النقل الاولى في الحروب ، وكان من المهم ان يستمر جلبها وبيعها . واما السوق الثانية فكانت مراقبتها شديدة خشية ان يتزيا العيون بزي الرقيق فيطلعوا على ثغرات البلاد ويبعثوا باخبارها الى قومهم ، فضلاً عن ان المماليك كانوا يبحثون عن الخدم والحرس الخاص في هذه السوق .

. . .

وكان لكل من المؤسسات الاجتماعية في دمشق ، مثـــل البيمارستانات والمساجد والمدارس والزوايا ، ناظرها . ولم يكن من الضروري ان يكون ناظر البيمارستان طبيباً ، لكنه كان من المحتّم ان يختار رجل متين الخلق لذلك . وكان الناظر مسؤولاً في تصرفاته امام نائب السلطنة ، وكان ينظر في اوقاف البيمارستان . اما الاطباء فقد كانوا تحت اشراف رئيس خاص بهم ، سواء في ذلك الاطباء الموظفون في البيمارستان واولئك الذين كانت لهم عياداتهم الخاصة . وقد كان من المتعارف عليه ان يكون في دمشق ثلاثة من هؤلاء الرؤساء : رئيس للاطباء ورئيس للجراحية ورئيس للكحالين . وقد يتولى احد هؤلاء ، اذا كان مبرزاً في علمه ، الجسم الطبي بكامله . وقد تولى بدر الدين مثل هذا المنصب في مطلع القرن السابع (الثالث عشر) .

وكان اليبرودي من كبار اطباء دمشق في القرن الخامس

(الحادي عشر) ، وقد وضع ما يصح ان يسمى ناموساً ادبياً للمشتغلين بالطب ، الذين كانوا حريصين على السير بموجبه . فالطبيب هو الذي اجتمعت فيه الخصال التالية :

١ – ان يكون تام الخلق صحيح الاعضاء حسن الذكاء جيد الرواية عاقلاً ذكوراً خير الطبع .

٢ – ان يكون حسن الملبس طيب الرائحة نظيف البدن والثوب .

٣ – ان يكون كتوماً لاسرار المرضى لا يبوح بشيء من امراضهم .

٤ – ان تكون رغبته في ابراء المرضى اكثر من رغبته فيما يلتمسه من الاجرة ، ورغبته في علاج الفقراء اكثر من رغبته في علاج الاغنياء .

٥ – ان يكون حريصاً على التعليم والمبالغة في منافع الناس.

٦ – ان يكون سليم القلب عفيف النظر صادق اللهجة ، لا يخطر بباله شيء من امور النساء والاموال التي شاهدها في منازل الاعلاء ، فضلاً عن ان يتعرض الى شيء منها .

٧ – ان يكون مأموناً ثقة على الارواح والاموال لا يصف

دواء قتالاً ولا يعلمه ولا دواء يسقط الاجنة . يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه .

وكان يقوم على شؤون المساجد نظار وخطباء وأئمة . فالناظر يدير الوقف وينظر في صيانة البناء ، والخطيب كان مسؤولاً عن خطبة الجمعة كما انه كان يقوم بقسط من التعليم ، والامام كان يؤم الناس في الصلاة . ولما كان للجامع الاموي الكبير منزلة خاصة في دمشق وجوارها ، فقد كان كثيراً ما يتولى نظره قاضي القضاة بذاته . كما كان يرجع اليه النظر في التداريس بدمشق ، كبارها وصغارها . ولا شك في ان التداريس الكبار كان يشغلها كبار العلماء — فهم الذين حفظوا للعلم مشعله في العاصمة السورية .

ومع ان الزوايا كانت من مراكز العلم ، بالاضافة الى امور اخرى ، فان النظر فيها لم يكن لقاضي القضاة : فقد كانت مستقلة وكان لها مدبروها . فكل زاوية حتى ولو سميت خانقاه او رباط ، كان لها شيخ يرجع اليه في امور جماعته او اتباعه . وكان هؤلاء الشيوخ جميعاً تحت امرة شيخ الشيوخ ، الذي كان ، في وقت واحد : مدبراً للجميع ، وحلقة اتصال بينهم وبين اصحاب السلطان . فقد كان لهؤلاء اهمية خاصة في نظر اهل الحكم ، اذ انه كان باستطاعتهم ان يخلقوا متاعب للحكومة لو انهم اثاروا في الناس روح التذمر : لكنهم لم يفعلوا .

فقد فضلوا ان يكونوا حلفاء السلطان ، وما اكثر اولئك الذين كانوا يسبحون بحمده . الا ان الزوايا كانت تقع تحت رقابة شديدة خشية ان ينضم اليها شيعة او اسماعيلية : والواقع ان الكثيرين ممن كانوا يترددون على الزوايا ويقيمون فيها كانوا كثيري الحرص على تعقب هؤلاء . اما بوصفها مراكز للمعرفة الصوفية فقد ادت الزوايا خدمات جلى للادب والفكر ايام المماليك ، الامر الذي سنتحدث عنه فيما بعد .

لقد تردد كثيراً ان اكثر المدرسين ، على اختلاف مراتبهم ، كانوا في خدمة الدولة، التي كانت حريصة في اختيارهم، وخاصة اصحاب النفوذ منهم . الا انه يجب ان نتذكر ان عدداً لا يستهان به من هؤلاء المدرسين كانوا يتخلون عن مناصبهم ذات الدخل الكبير ويعتصمون في بيوتهم ، حتى لا يخضعوا لنزوات الحكام . ذلك انهم كانوا ينظرون الى مهنتهم نظرة اجلال ، وكانوا يرون في الحفاظ على علوم الدين واجباً وعملا كبيرين . ويتضح ذلك من اسماء اولئك الذين قبلوا بالتدريس : لقد كانوا كبار العلماء في ايامهم .

. . .

ادرك المماليك ، كما عرف ذلك من قبل، انه كان ايسر عليهم ان يكون اتصالهم برعاياهم من غير المسلمين عن طريق خاص بهم.

فما داموا قد منحوا وضعاً خاصاً وسمح لهم بان يمارسوا عقائدهم وعباداتهم بحرية، فانه حري بهم ان تكون لهم منظماتهم الخاصة، على الاقل عندما تكون مسائل الاحوال الشخصية والامور الدينية هي موضع الاهتمام .

وكان للمسيحيين بطركان (بطريركان) في دمشق : الواحد للملكيين والثاني لليعاقبة . وكان كل منهما مسؤولاً امام نائب السلطنة ، وكان اختصاص كل منهما يشمل المسيحيين التابعين له لا في دمشق وحدها فحسب ، بل في طول المملكة وعرضها . وكان فيما يتعلق بهذه الناحية يأتي تحت السلطان مباشرة .

وكانت الطائفة تختار بطركها (بطريركها) ، الا ان تعيينه كان يتم بمرسوم يصدره السلطان. وقد جاء في التوقيع السلطاني، بالاضافة الى امور اخرى ، ما يلي :

فلذلـــك رسم بالامر الشريف – لا زال احسانه العميم لكلّ طائفة شاملاً ، وبرّه الجسيم لسائر الملك بالفضل متواصلاً – ان يستقرّ بطركاً على النصارى الملكية بالشام وأعماله ، على عادة من تقدّمه في ذلك ، وتقوية يده على اهل ملّته ، من تقادم الكريم المستمرّ حكمه الى آخر وقت .

فليباشر هذه البطركية مباشرة محمـــودة العواقب ،

مشكورة لما تحلّت به من جميل المناقب ، وليحكم بينهم بمقتضى مذهبه ، وليسر فيهم سيراً جميلاً ليحصل لهم غاية قصده ومأربه ، ولينظر في احوالهم بالرحمة ، وليعمل في تعلّقاتهم بصدق القصد والهمة ، وليسلك الطرق الواضحة الجليّة ، وليتخلّق بالاخلاق المرضيّة ، وليفصل بينهم بحكم مذهبه في مواريثهم وأنكحتهم، وليعتمد الزّهد في أموالهم ومتعتهم ، حتى يكون كل كبير منهم وصغير ممتثلاً لأمره ، واقفاً عندما يقدّم به اليه في سرّه وجهره ، منتصبين لاقامة حرمته ، وتنفيذ امره وكلمته ، وليحسن النظر فيمن عنده من الرهبان ، وليرفق بذوي الحاجـــات والضعفاء : من النساء والصبيان ، والاساقفة والمطارنة والقسّيسين زيادة للاحسان ، احساناً جارياً في المساء والصباح ، والغـــدوّ والروّاح .

فليمتثلوا امره بالطاعة والاذعان ، وليجيبوا نهيه من غير خلاف ولا توان ، ولا يمكّن النصارى في الكنائس من دقّ الناقوس، ورفع اصواتهم بالضجيج ولا سيا عند اوقات الأذان لاقامة الناموس ، وليتقدم الى جميع النصارى بأن كلاًّ منهم يلزم زيّه ، وما جاءت به الشروط العمريّة – عمر بن الخطّاب رضي الله عنه – لتكون أحوالهم في جميع البلاد مرعيّة ، وليخش عالم الخفيّات ، وليستعمل

الأناة والصبر في جميع الحالات ، والوصايا كثيرة وهو بها عارف ، والله تعالى يلهمه الرشد والمعارف [1] .

كان رئيس اليهـــود يسمى الناغد في بادىء الامر ثم شاع استعمال الرئيس . وقد كان ثمة مقدم لطائفة السامريين الذين كان عددهم في دمشق لا بأس به ، لكن رئيسهم كان في مدينة نابلس بفلسطين . وقد كانت واجبات رئيس اليهود توضح في مرسوم التعيين وهي تشبه وظائف البطرك .

فالبطرك والرئيس كان لهما اعوان على مراتب متفاوتة . فالاول كان يعتمد على الاساقفة والكهنة ، اما اعوان الثاني فكان منهم البرناس الذي كان يجمع الصدقات ، والمقدمون والديان (المراقبان) والحزان وبيت الدين (القاضي) ، وكان كل يقوم بواجباته على نحو ما نص عليه ناموس اليهود .

ولم يكن البطرك او الرئيس مسؤولين عن جمع الجزية : فقد كانت هذه تدفع الى موظفي الدولة رأساً . الا انـــه كان من الضروري ان يطلع رجال الحكومة على التطورات التي تجري في الطائفة ، في سبيل تعيين المبالغ الواجب دفعها . لذلك كان على رؤساء المسيحيين واليهود والسامريين ان يعدوا الرقاع المفصلة

---

١ – صبح الاعشى ، ١٢ : ٤٢٥ – ٤٢٦ .

المحتوية اسماء المقيمين في مناطقهم واسماء الطارئين عليها واسماء المولودين والمتوفين والنازحين والذين اعتنقوا الاسلام . هـــذه الرقاع كانت تقدم الى شاد الجوالي ، الذي كان عليه ان يتشدد في الحصول عليها .

وقد ترتب على منح هذه الادارة الذاتية للطوائف الدينية المختلفة حلّ بضع من المشكلات الادارية ، ويسر ذلك لها ان تطور مجتمعها داخلياً . على ان هذا التنظيم شجع الانطواء الديني والعنصري ، الا انه ، من الناحية الاخرى ، مكن للحاكم ان يهتدي الى تلك الطوائف بيسر عندما يحتاجها ، بقطع النظر عن الباعث الى تلك الحاجة .

. . .

وكانت الاسواق والصناعات هي التي تستأثر بعناية الدولة في ايام المماليك . فقد كانت دمشق مدينة كبيرة ، ومن ثم كان توفير الحاجات الضرورية لسكانها امراً هاماً . كان الموردون مبدئياً من سكان المناطق المجاورة ، لكن البضائع غير القابلة للتلف ، كان يحملها التجار من اماكن بعيدة ، بما في ذلك التجار الاجانب . ولم تكن الاسعار تتوقف على العرض والطلب فحسب ، بل كانت ثمـــة عوامل اخرى تتعلق باساليب البيع واختلاف الموازين والمكاييل وتنوع النقود المستعملة . ذلك ان دمشق ، وقد كانت

متاجرها تأتيها من اماكن بعيدة ، كان فيها ما لا يقل عن ثلاثة انواع من المكاييل للحبوب وفيها اثنان للزيوت والسوائل الاخرى واربعة اصناف من المقاييس . يضاف الى ذلك ان دمشق كانت تستعمل ثلاثة انواع من النقود .

فقد سار المماليك على الخطة التي اتبعتها الدول الاسلامية من قبل واتخذوا نقدين الواحد اساسه الذهب ووحدته الدينار (١٫٤٥ دولاراً) وكان دوماً نادر الوجود والثاني قاعدته الفضة ووحدته الدرهم (٠٫٠٧ من الدولار) وهو الذي غلب وجوده واستعماله . وقد اختلفت نسبة الاول الى الثاني بنسبة وجود الفضة في الدرهم : وكانت خير الدراهم النقرة وفيها الثلثان من الفضة والثلث الواحد من النحاس ، وكان عشرون درهماً من النقرة تساوي عادة ديناراً واحداً . وقد سك المماليك الفلس ، وهو نقد نحاسي كان كل ٤٨ منه تساوي درهماً ، لكنه لم يعمر طويلاً لان قيمته تدنت بعد وقت قصير . وقد كان ثمة دينار آخر كانت تحسب بموجبه مكافآت رجال الجيش ، وان لم يستعمل كنقد في واقع الامر . وكان اربعة انواع من النقد الاجنبي شائعاً استعمالها في دمشق وهي : الافرنتي (ولعله نقد فرنسي يساوي ١٧ درهماً او ١٫١٩ دولاراً) ، والذهب البنـــدقي (يساوي ١٫٤٠ دولاراً) ، والدوقة الفضية (٠٫١٤ من الدولار) والبزنتة التي تساوي عشرة دراهم (٠٫٧٠ من الدولار) .

ومن ذا الذي كان اليه النظر في مثل هذه النشاطات وما اليها ؟ ليسمح لنا القارىء بان نذكره بان بعض الاسواق ، مثل سوق الخيل وسوق الرقيق ، وبعض الصناعات مثل السكر والحديد ، كان لها مشرفون وكان هؤلاء تعينهم الدولة . لكن العبء الحقيقي في الاشراف على الاسواق والتجار كان يقع على كاهل المحتسب .

ادخل اليونان الى مدن الشرق الادنى وظيفة كان صاحبها يسمى امين السوق . كان يدخل في نطاق واجباته التأكد من ان ما يباع في السوق جيد وان المكاييل والمقاييس المستعملة صحيحة . وقد استمرت هذه الوظيفة ايام الرومان والبيزنطيين ولعل المسلمين ورثوها منهم بعد الفتح ، مع ما ورثوه من مناصب ادارية متنوعة . ويبدو ان المدن السورية استمرت تستعمل هذه الوظيفة ، لكن منذ القرن الرابع (العاشر) او الخامس (الحادي عشر) ، اصبحت الوظيفة دينية المعنى والغاية ، شأنها في ذلك شأن وظائف كثيرة غيرها .

وقد حدث تطور آخر يتعلق بالمحتسب بعد القرن الخامس (الحادي عشر) ، وهو ظهور عدد كبير من الكتب التي كانت توضح طبيعة الوظيفة الشرعية والدينية ، وتبين ما يجب ان يتحلى به من يتولاها ، وتعين واجباته . وقد كان المحتسب ، ايام الايوبيين والمماليك ، واحداً من اوسع موظفي الدولة نفوذاً ،

لانه كان يراقب الحركات التخريبية والاشخاص المرتاب بهم .
ولم يكن محتسب دمشق ليشذ عن ذلك ، الا في ان مسؤوليته
كانت اكبر .

كان المعين لهذا المنصب يختار بدقة : يجب ان يكون فقيهاً
عارفاً بالشريعة تقياً نظيف القلب دقيقاً صبوراً عارفاً بوسائل
اهل الصنائع وطرق غشهم . وكانت واجباته متعددة ؛ كانت
له دكة في السوق ، وكان يظل قريباً من الاسواق ، يركب
خلالها ويفاجيء التجار نهاراً وليلاً . وكان اعوانه وغلمانه
يرافقونه في غدواته وروحاته . وكان يعين عرفاء لمباشرة
الاسواق (وقد كانوا في الواقع رؤساء التجار ، اذ انه كان لكل
صناعة او تجارة سوقها الخاص في الغالب) . ومع ان اكثر اعمال
المحتسب كانت تتم في الاسواق ، فما اكثر ما كان يتفقد المساجد
ليتأكد من ان المشرفين عليها حافظوا على نظافتها وان الذين
يفدون عليها يحسنون استعمالها . وكان عليه ان يراقب الازقة
الموحشة خشية ان يسيء بعض الرجال والنساء استعمالها للاجتماع
او الالتقاء .

وكان على المحتسب ان يعنى بنظافة الاسواق والشوارع ،
وان يتأكد من ان المتاجر لا تزعج المارة . وكان يحمي
الجمهور من ان يقدم الباعة له الطعام الرديء او يغشوه
بالكيل والميزان ، ومن تجار النقود الزائفة والمحتكرين ، وان

يحمي الاطفال من الضرب على ايدي معلميهم ، ومن تزوير الاطباء والكحالين والجرائحية والصيادلة . وكان يضع اصحاب الصناعات التالية تحت المراقبة المباشرة او غير المباشرة وهم : الجزارون وقلاة السمك وطهاة الحلوى وصناع النقانق والحاكة والخزافون وصناع الابر وباعة الحناء والصناع في معاصر السيرج وصناع المناخل والدباغون واللباديون وصانعو الحصر وبائعو الحلى وتجار الارز وسقاة الماء .

فالمحتسب كان موظفاً كبيراً في الدولة ، وكانت واجباته تقوم على اساسين : اولهما انه عهد اليه بحماية الجمهور من الغش والظلم ، وكان عليه ان يستوثق من ان الذين يحملون الحاجيات والبضائع الى المدينة لا يعترضهم التجار المحليون خارج الاسوار، فيبتاعون ما معهم بالثمن البخس ليبيعوه فيما بعد بالثمن الفاحش. فالبيوع جميعها كان يجب ان تتم في السوق وعلى ايدي دلال وباشراف اعوان المحتسب . ومع ان المحتسب لم يكن له ان يسعر الاشياء، فانه كان يستطيع ان يحول دون الباعة والاسعار الفاحشة . وكان يتوجب عليه ان يتأكد من ان القمح والدقيق والخبز متوفرة للاستهلاك. لكن يجب ان نذكر ايضاً ان المحتسب كان يحمي الحكومة (وهذا هو الاساس الثاني) . فالصناع ، وهم ما يمكن ان يسمى اهل الطبقة الوسطى او ما الى ذلك، كانوا تحت اشرافه ، اي اشراف الحكومة . ويمكن تفهم هذا الامر اذا تذكرنا ان هذه الفئة من السكان كانت مهيئة لان تتأثر بتعاليم

الشيعة والاسماعيلية ، الامر الذي كان مدعاة للقلق في دولة سنية .

وكان ثمة مصالح لم تخضع لاشراف المحتسب . فقد اشرنا الى الاسواق والمصانع التي لم تكن تحت اشرافه ، ولنضف الآن ان التعليم العالي لم يكن من اختصاصه ايضاً . فالاولى كان لها نظارها والتعليم كان يقع على كاهل قاضي القضاة ، ولم تكن الحكومة قلقة من هذه الناحية . ذلك ان الصناعات التي كانت يجب ان تكون تحت مراقبة شديدة هي الصناعات الحرة والاقل اهمية .

وكان للمحتسب ان يوقع بعض العقوبات ، خاصة اذا كانت الشرطة تحت اشرافه ، لكن ذلك كان لا يأتي الا بعد التعزير مرات متعددة . ويبدو انه في هذه المسائل كان المحتسب يقوم بعمل قاض في قضايا ، لم تكن تستحق نظر المحكمة، ولو انها اجرامية ، وكان بطبيعة الحال ، يطبق احكام الشرع .

٧ الحياة الفكرية

كان الفاطميون ، في نهاية القرن الخامس (الحادي عشر) ، قد احتلوا جزءاً كبيراً من فلسطين وسورية ، وكان التشيع قد انتشر في جزء كبير من البلاد . وقد اصاب الدول الاسلامية بعض الخذلان السياسي لما اتيح للصليبيين اقامة الدويلات اللاتينية في سورية ولبنان وفلسطين في القرن نفسه والقرن الذي تلاه . الا ان ردة الفعل الاسلامية جاءت في القرن السادس (الثاني عشر) : بدأها زنكي ودفع بها الى الامام نور الدين ثم تمكنت الجيوش الاسلامية من الانتصار على اللاتين في معركة حطين سنة ١١٨٧/٥٨٣ بقيادة صلاح الدين الايوبي .

كان زنكي ونور الدين وصلاح الدين سنيين ، وانتعاش الاسلام على ايديهم كان معناه احياء السنة . فقد روى ابو شامة ان نور الدين نصر السنة في حلب وازال الزيادة من الأذان وضيّق على الروافض . وقـــد قضى صلاح الدين على الخلافة الفاطمية ١١٧١/٥٦٦ واعترفت مصر وسورية بخليفة بغداد . واندفع آل زنكي والايوبيون في تأييد السنة كما انهم لم يتورعوا عن التضييق على الشيعة ما وسعهم ذلك : فانشئت المدارس لتعليم السنة ، واعيد منصب المحتسب . وسار المماليك على نهج

اسلافهم فأتموا الحملات العسكرية والسياسية ضد الصليبيين وانتهوا الى استرجاع ديار الشام منهم، فضلاً عن انهم انشأوا عدداً اكبر من المدارس، ونظموا الحكومة، وشددوا الخناق على الشعب، وفرضوا مراقبة دقيقة على مرافق الحياة جميعها، وقادوا الحملات ضد النصيرية، وشادوا المساجد على الاراضي التي انتزعت من اصحابها.

كان صلاح الدين وخلفاؤه على المذهب الشافعي الذي اصبح، مع الاشعرية، وكأنه المذهب الرسمي للدولة. وكان بيبرس اول من اعترف بالمذاهب السنية الاخرى اذ عين قاضي قضاة لكل من المذاهب الاربعة في القاهرة اولاً ثم في سورية. وهكذا انتصرت السنّة نهائياً اذ انها ضمنت تأييد السلطة لها، كما كانت هذه بحاجة الى تأييد العلماء.

وكان ثمة حركة اخرى ذات اثر كبير في الفترة التي نتحدث عنها وهي التصوف. وكان التصوف في اصله تعبيراً عن الرغبة في ايجاد الصلة بين الخالق والمخلوق بواسطة التقوى والتقشف، الا انه تطور تدريجاً الى حركة كان لها اثر بعيد في الفكر الديني في الاسلام. يقول احد الكتاب في ذلك: «كان النساك طلائع الحركة، وقد عرفوا في الجزيرة والعراق وفلسطين وسورية وخراسان، وكان من الفضائل التي يتحلون بها، والتي جعلوها ناموساً لحياتهم، الزهد والاعراض عن الثروة والجاه.

كان النساك سلبيين في موقفهم من الحياة وكانت حياتهم خلواً من الفرح. لكن لم يلبث الدفء ان وجد سبيله الى حياة الكثيرين من النساك – وكان دفئاً ينبع من نور ينفذ الى الاعماق وانطلاق روحي الى الاعلى . من بغداد جاءت الجذوة الاولى ، وظلت مصدر الوحي مدة طويلة » . وفي واقع الامر فان بغداد لم تزد عن كونها حافظت على دور القيادة الاول في الادب والفقه والشرع والفلسفة .

وقد ازداد عدد المتصوفة ، وتأثروا بالثيوصوفية اليونانية والهندية والمسيحية وغيرها ، بحيث انتهى الامر بما كان من آراء فردية في التصوف ان اصبح تدريجاً نظريات ونظماً لكلٍّ مريدوه ودعاته ، وهي امور لا يتسع المقام لها هنا .

وكان آخر ما اصاب التصوف من تطور هو قيام الطرق التي كان من اكثرها اصالة القادرية (انشأها في بغداد عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة ١١٦٦/٥٦١) ، والسهروردية (انشأها السهروردي المتوفى سنة ١٢٣٤/٦٣١) ، والشاذلية (نشأت في شمال افريقية على يد الشاذلي المتوفى سنة ١٢٥٨/٥٥٦) وهي اولى الطرق المغربية ، والمولوية (انشأها جلال الدين الرومي المتوفى سنة ١٢٧٣/٦٧٢ في تركية)، والتي يعرف اتباعها احياناً باسم الدراويش الراقصين . من هذه الفرق الاربع وكثير غيرها تفرعت عشرات من الطرق .

ولما كان في التصوف بعض من التعاليم التي لا يقبلها العلماء من اهل السنـّة، فلم يكن غريباً ان يثير المتصوفة غضب العلماء، الذين اتهموهم بالشرك والكفر. وقد لاحظ واحد من المؤلفين « ان الفرق الاساسي بين موقف العلماء وموقف المتصوفة هو ان الاولين رأوا في العلم بالقرآن والحديث الطريق الوحيد لادراك الله وتلقي الهدى لاتباع طريقه ووصاياه، بينما حسب المتصوفة المعرفة سبيـــلاً يؤدي الى الغاية ذاتها. والمعرفة، كما فهمها المتصوفة، لم تكن تقول بالتغاضي عن اركان الاسلام، بل انها وضعت النبرة على التجربة الشخصية واخذت تدريجاً بالاعتراف بالاحوال والمقامات التي كان على الصوفي ان يجتازها في سبيل تحقيـــق معرفة الله. فالصوفي كانت تمر به احوال وأوضاع روحية في تنقله في طريق الرحلة العلوية من مقام الى الذي يليه. وقد كان هذا الطريق طويلاً ملتوياً مضنياً مرهقاً وفيه خمس واربعون مرحلة من التوبة الى الشوق للبقاء مع الله دوماً». ومن نافل القول ان قلة من الناس اعطي لهم ان يبلغوا الغاية من هذه الاهداف. ولكن احراز بعض النجاح على الاقل، على هذه الطريق، كان يقرّب الانسان من الله اكثر مما يقربه التفسير الشرعي، او على الاقل هكذا قال المتصوفة.

وقد عرف التصوف عالِماً كبيراً اتيح له ان يجمع على اقل حال في تفكيره شخصياً بين الفكر الصوفي والفكر السني، وهو الغزالي (المتوفى سنة ٥٠٥/١١١١) الذي كان من كبار علمـــاء

عصره ان لم يكن اكبرهم . وقد قطع على نفسه عهداً بان يتمرس بالتصوف عملياً . وكانت النتيجة مذهـــلة : لم يكتف الغزالي بقبول التصوف ، بل نصب نفسه للدفاع عنه . وقد كان هذا اكبر فتح للتصوف . وقد روى الغزالي قصة رجوعه الى الصواب في ترجمته الذاتية المسماة « المنقذ من الضلال » ، قال :

ثم اني لما فرغت من هذه العلوم ، أقبلت بهمتي على طريق الصوفية ، وعلمت ان طريقتهم انما تتم بعلم وعمل . وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتحليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر عليّ من العمل . فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ، مثل « قوت القلوب » لابي طالب المكّي — رحمه الله — وكتب الحارث المحاسبي ، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد ، والسلى ، وأبي يزيد البسطامي قدّس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصّلت ما يمكن ان يحصل من طريقهم بالتعليم والسماع . فظهر لي ان اخص خواصهم ، ما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات .

وكم من الفرق بين ان يعلم حد الصحة ، وحد الشبع ،

وأسبابها وشروطها ، وبين ان يكون صحيحاً وشبعاناً . وبين ان يعرف حد السكر ، وانه : عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين ان يكون سكراناً . بل السكران لا يعرف حدّ السكر ، وعلمه وهو سكران ، وما معه من علمه شيء . والصاحي يعرف حد السكر ، وأركانه ، وما معه من السكر شيء . والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة ، واسبابها ، وادويتها ، وهو فاقد الصحة . كذلك فرق بين ان تعرف حقيقة الزهد وشروطها ، وأسبابها ، وبين ان يكون حالك الزهد ، وعزوف النفس عن الدنيا .

فعلمت يقيناً انهم ارباب الاحوال ، لا اصحاب الاقوال. وان ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته . ولم يبق الا ما لا سبيل اليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك .

وكان قد حصل معي – من العلوم التي مارستها ، والمسالك التي سلكتها في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية – ايمان يقيني بالله تعالى ، وبالنبوة ، وباليوم الآخر .

فهذه الاصول الثلاثة من الايمان كانت رسخت في نفسي ، لا بدليل معين محرر ، بل بأسباب ، وقرائن ، وتجاريب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها .

وكان قد ظهر عندي انه لا مطمع لي في سعادة الآخرة الا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى . وان رأس ذلك كله ، قطع علاقة القلب عن الدنيا : بالتجافي عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى . وان ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه ، والمال ، والهرب من الشواغل والعلائق .

ثم لاحظت احوالي : فاذا انا منغمس في العلائق ، وقد أحدقت بي من الجوانب . ولاحظت اعمالي – واحسنها التدريس والتعليم – فاذا انا فيها مقبل على علوم غير مهمة ، ولا نافعة في طريق الآخرة . ثم تفكرت في نيتي في التدريس : فاذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى . بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت : فتيقنت اني على شفا جرف هارٍ ، واني قد أشفيت على النار ، ان لم أشتغل بتلافي الاحوال .

فلم أزل اتفكر فيه مدة ، وانا بعد على مقام الاختيار . أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الاحوال يوماً ، وأحل العزم يوماً ، وأقدم فيه رجلاً وأؤخر عنه اخرى . لا تصدق لي رغبة في الآخرة بكرة ، الا وتحمل عليّ جند الشهوة حملة فتفترها عشية . فصارت شهوات الدنيا تجاذبني سلاسلها الى المقام ، ومنادي الايمان

ينادي : الرحيل الرحيل، فلم يبق من العمر الا قليل، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما انت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ، فان لم تستعد الآن للآخرة ، فمتى تستعد ؟ وان لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع ؟ فعند ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار .

ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حال عارضة ، اياك ان تطاوعها ، فانها سريعة الزوال . فان أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص ، والامن المسلم الصافي عن منازعة الخصوم ، ربما التفتت اليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة .

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة، قريباً من ستة اشهر أولها : رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة . وفي هذا الشهر جاوز الامر حد الاختيار الى الاضطرار : اذ اقفل الله على لساني حتى اعتقـــل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي ان ادرس يوماً واحداً تطييباً لقلوب المختلفة اليّ، فكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة، ولا استطيعها البتة ، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب، بطلت معه قوة الهضم، ومراءة الطعام والشراب، فكان لا ينساغ لي ثريد ، ولا تنهضم لي لقمة . وتعدى الى ضعف القوى ، حتى قطع الاطباء طمعهم من العلاج ،

وقالوا : هذا امر نزل بالقلب ، ومنه سرى الى المزاج ، فلا سبيل اليه بالعلاج الا بأن يتروح السر عن الهم الملم .

ثم لما أحسست بعجزي ، وسقط بالكلية اختياري : التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له . فأجابني الذي يجيب المضطر اذا دعاه . وسهل على قلبي الاعراض عن الجاه ، والمال ، والاولاد ، والاصحاب [١] .

وقد ترتب على هذه النقلة ان اوجد الغزالي «للمواقف الباطنية الداخلية مكاناً في مجال الاسلام الرسمي ، فكان جنباً الى جنب مع الشريعة والكلام». الا ان الغزالي جعل التصوف سنياً، لان ما قبله من التصوف لم يكن التصوف المتطرف. وقد ارتأى ا. ج. آربري انه منذ ايام الغزالي اصبح بامكان نوع هادىء من التصوف ان يحتل مكاناً بين العلوم الاسلامية . الا ان هذا القول يقابله استثناءات متعددة ، كابن تيمية ، عالم دمشق في ذلك العصر ، الذي كان شديد الحملة على التصوف. ولنا الى هذا الموضوع عودة.

كان التصوف الاسلامي ، في القرن السابع (الثالث عشر) ، قد كون ثيوصوفيته الخاصة المبنية على اساس فكرة الكلمة ،

---

١ — المنقذ من الضلال ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٢ ص ٨٨ — ٩١ .

والتي اصبحت فيما بعد فكرة الحقيقة المحمدية. وقد كان لصوفيين كبيرين الفضل في نشرها وهما : ابن الفارض (المتوفى في القاهرة سنة ٦٣٣/١٢٣٥) وابن عربي (المتوفى في دمشق سنة ٦٣٨/١٢٤٠) . وكانت دمشق بين القرنين السابع (الثالث عشر) والتاسع (الخامس عشر) مركزاً هاماً لناحيتي التفكير الاسلامي: السنة والشريعة من جهة والتصوف من جهة اخرى ، وكانت كفة الناحية الاولى ارجح في غالب الاحيان .

وقد كانت ثمة عوامل كثيرة ادت الى ذلك ، منها النظام الجديد الذي ظهر في هذه الرقعة من العالم الاسلامي. لكن يجب ان نذكر الآن ان خطر الغزو المغولي ، الذي تحقق لما احتل هؤلاء بغداد ، حمل كثيرين من العلماء على الهجرة من العاصمة العباسية متجهين غرباً ، وكانت دمشق المكان الطبيعي الذي يلقون عصا التسيار فيه . كما ان الرعاية التي كان آل زنكي والايوبيون وبعض سلاطين المماليك يسبغونها على العلماء ، جذبت كثيرين منهم فانتقلوا من شمال العراق الى دمشق . فأسرة ابن تيمية انتقلت الى دمشق وعالم المستقبل كان لا يزال طفلاً ، لكن اباه وجده كانا من العلماء المرموقين . ويبدو ان القاهرة لم تجذب اهل الفكر دوماً في تلك العصور . فابن عربي تركها بعد ان اعتدي عليه اكثر من مرة ، وابن خلدون رضي بالبقاء هناك

مرغماً . اما دمشق فكانت ذات جاذبية خاصة . وفضلاً عن ذلك فان عدداً من العلماء هجر فلسطين ، وهي تحت حكم الصليبيين ، الى دمشق مثل بني قدامة ، الذين انشأوا الصالحية . وقد ظلت بغداد مركزاً للعلم ، لكن دمشق سبقتها .

تجمع لدينا اسماء ١٣٥ عالماً قضوا حياتهم ، او جزءاً منها ، في سورية ، وكان غالبهم يعيشون في دمشق . وقد امكن تصنيفهم على الشكل التالي :

الفقهاء	٢٦
المفسرون والمحدثون	٢٣
المتصوفة	٥
اهل النحو والادب والشعراء	٣٢
المؤرخون والجغرافيون	٢٨
الاطباء والعلماء والفلكيون	١٤
الموسوعيون	٤
مؤلفون متفرقون	٣

فاهل الاصناف الثلاثة الاولى، اي الذين ألفوا في الموضوعات الدينية ، وعددهم ٥٤ عالماً ، يكونون ٤٠ ٪ من مجموع العلماء .

فاذا انتقلنا الى الكتب وجدنا ان ٩١٨ مجلداً وضعت في الفترة نفسها ، فاذا وزعناها موضوعات وجدناها كما يلي :

الفقه	٢٧١
التفسير والعقيدة والحديث	١٦٤
التصوف	١٥٨
اللغة والادب والشعر	١٣٥
التاريخ والجغرافية	١٢٣
الطب والعلوم والفلك	٥٢
الموسوعات	٤
مؤلفات متفرقة	١١

والكتب الموضوعة في الشؤون الدينية هي ٥٩٣ وتؤلف ٦٥٪ من مجموع ما الف . ولعله من الخير ان نضيف الملاحظ التالية :

١ – نجد ان الكثير من الدواوين يدخل في عداد الكتب الدينية اذا كان الموضوع ذكر الله ومدح الرسول .

٢ – ثمة عدد من الكتب الدينية يتكون من عدد من المجلدات ، بينما الكتب العلمية قصيرة في الغالب . فالجواب الصحيح وفتاوى ابن تيمية وتفسير ابن كثير ، على سبيل المثال ، يقع كل منها في مجلدات عدة .

٣ ـ ان عدداً كبيراً من المحدثين والقراء اقتصر عملهم على التعليم في المساجد والمدارس لكنهم لم يؤلفوا كتباً . وهؤلاء يجب ان يذكروا .

واذا تذكرنا الكتب التي فقدت بالمرة فنحن محقون في اعتبار النتاج الادبي في هذه الفترة ضخماً وممتلئاً نشاطاً . ولو تفحصنا بعض ما كتب دفاعاً عن الاسلام او ما تعرض للموضوعات التي لا تدخل في نطاق السنة او التي تتحدث عن غير المسلمين لاتضح لنا ان المؤلفين كانوا على شيء كثير من الحيوية .

والفترة عرفت القليل من التأليف ، باستثناء كتب قليلة في الطب والفلك . وثمـــة كتابان في المنطق واثنا عشر كتاباً في الجغرافية وكتاب واحد عن الاستراتيجية والتعبئة . وقد اتبع الطب بسبب رعاية نور الدين وصلاح الدين وخلفائهما . فضلاً عن ان الطب كان ذا فائدة عملية ولم يكن له نصيب من التدخل في امور السياسة . وعلى غرار ذلك كانت كتب الفلك وما اليه في الغالب تعنى بالناحية العملية من هذه القضايا ، مثل التوقيت وعمل الاسطرلاب .

هل من الممكن تفسير هذه الامور كلها ؟

كانت الدولة تشرف على التعليم العالي . وكان هدفها حماية نفسها ، وكان هذا هو الغرض الذي قبل علماء الدين والمفكرون

الاضطلاع به . فلم يكن لحرية الفكر مكان في نظام التعليم في تلك الفترة ، بل انه لم يكن لها مجال في الحياة الفكرية عامة . ويروي ابو شامة ان صلاح الدين لم يكن يحب الفلاسفة او اولئك الذين كانوا يخالفون المتبع المألوف ، حتى انـــه امر بقتل السهروردي (المقتول) . وقد كان هذا سابقة خطرة استنها هذا الرجل الذي كان ينظر اليه خلفاؤه بعين الاكبار .

كانت التربية اساسها فهم النظام الفقهي الذي بذل العلماء جهداً في اقامته. ومن ثم فقد ضاقت حلقات المتعلمين واقتصرت موضوعات التعليم : ويلاحظ الباحث ان الكثير من كتب العقائد لم تكن اكثر من شروح وتفاسير لكتاب واحد او ذيول له . ومن حيث ان المجتمع الاسلامي لم يتلق ، في القرن السابع (الثالث عشر) او بعده ، تيارات فكرية من الخارج ، فان الحياة الفكرية لم تعرف الحوافز او البواعث التي تحملها على الانطلاق . ذلك ان التوازن الداخلي القائم وجد في الفقه المعاصر له مـــا يلزمه لسد حاجاته . وكان لا بد من ضغط خارجي لاحداث رد فعل يؤدي الى تبديل الوضع ، ومثل هذا الضغط لم يشهده العصر المملوكي .

شهدت الفترة التي اصطدم فيها الصراع بين المسلمين والصليبيين ازدهاراً في الشعر العربي . فقد زودت انتصارات نور الدين وصلاح الدين الشعراء بموضوعات لقصائدهم ، ولم يقصروا قط في

التغني باعمال الامراء الكبار . فابن عنين وابن الساعاتي امتدحا الايوبيين مع ان الاول ذاق ألم النفي من دمشق ، وقضى مدة في اليمن — لكن في بلاط واحد من الايوبيين .

وشعراء الفترة — اي في القرنين السابع (الثالث عشر) والثامن (الرابع عشر) — الذين يمكن عدهم بين شعراء سورية كثر : فثمة ثلاثة وعشرون منهم . لكن نتاجهم الادبي لا يبلغ مبلغ النتاج الشعري العربي القديم من حيث نوعه . ولعل ابن نباتة اذيعهم صيتاً . ولد هذا الشاعر في ميافارقين سنة ٦٨٦/١٢٨٧ وانتقل الى دمشق سنة ٧١٦/١٣١٦ ، لكنه رحل اخيراً الى القاهرة وتوفي فيها سنة ٧٦٧/١٣٦٦ . وفي ديوانه الكثير من شعر المديح ، ومن هذه القصائد ثماني عشرة تبدأ بالطريقة التقليدية من تذكر الاحبة والمرابع . وقد نظم ابن نباتة الموشح ، الذي يزعم البعض ان ابن عربي نقله الى المشرق من الاندلس . كما انه نظم الزجل ، وفي ديوانه نموذج من ذلك .

ويبدو ان الادباء في ذلك العصر احسوا برغبة اهل الفكر في ان ينصرفوا الى الفقه وما اليه ، لذلك نجد ان ياقوت يعتذر في مقدمة كتابه « ارشاد الاريب الى معرفة الاديب » بقوله :

واني لجد عالم ببغيض يندد ويزري عليّ . ويقبل بوجه اللائمة اليّ . ممن قد أشرب الجهل قلبه . واستعصى على كرم

السجية لبه . يزعم ان الاشتغال بأمر الدين اهم . ونفعه في الدنيا والآخرة أعم . اما علم ان النفوس مختلفة الطبائع . متلونة النزائع . ولو اشتغل الناس كلهم بنوع من العلم واحد لضاع باقيه . ودرس الذي يليه . وان الله جل وعز جعل لكل علم من يحفظ جملته . وينظم جوهرته . والمرء ميسر لما خلق ولست انكر اني لو لزمت مسجدي ومصلاي . واشتغلت بما يعود بعاقبة دنياي . في أخراي أولى . وبطريق السلامة في الآخرة أحرى . ولكن طلب الافضل مفقود . واعتماد الاحرى غير موجود . وحسبك بالمرء فضلاً ان لا يأتي محظوراً . ولا يسلك طريقاً وعيراً [1] .

كان ابن عربي من كبار متصوفة اواخر القرن السادس (الثاني عشر) وأوائل القرن السابع (الثالث عشر) ، وقد صرف عشرين سنة او يزيد من حياته في دمشق ، حيث وضع قسماً كبيراً من خير مصنفاته . ولد ابن عربي في مرسية من اعمال الاندلس سنة ٥٦٠/١١٦٥ وتلقى علوم الحديث والفقه في لشبونة واشبيلية وسبتة واطال التجوال في شمالي افريقية . ومع انه كان قد تعرف الى الصوفية من قبل ، فانه انضم الى المتصوفة في تونس . ويبدو ان هذا الاتجاه الجديد في حياته هو الذي حمله

---

١ – ياقوت ، ارشاد الاديب ، القاهرة ، مطبعة هندية ١٩٣٢ ، ج ١ ص ٧ .

على الاتجاه شرقاً ، اذ ان عصر الموحدين لم يكن يتقبل مثل الآراء التي كان ابن عربي يقول بها . فضلاً عن انه ، مثل غيره من اهل الورع من المسلمين ، رغب في اداء فريضة الحج . وقد كان بلغ الثامنة والثلاثين من عمره لما بدأ رحلته الى المشرق .

ولم تكن اقامته في مصر هينة ، فقد هدد في حياته غير مرة ، لكن مكة راقته وطابت له صحبة اهلها والواردين عليها من الحجاج ، فاقام هناك ثماني سنوات عكف اثناءها على التأليف والتدريس ، وقد تم له اثناءها اقامة مذهبه التأملي . وقد زار فيما بعد بغداد التي اعجبته لكنه لم يقم فيها طويلاً — ولعله احس بالاخطار المحدقة بالعاصمة العباسية من الشرق . وبعد تجوال قصير في آسية الصغرى القى عصا الترحال في دمشق ، وفيها توفي سنة ٦٣٨/١٢٤٠ .

حظي ابن عربي في دمشق بكل ما يمكن ان يطمع فيه من لقاء طيب وعيش رغيد ورعاية اولي الامر ، وكان في ذلك خير له ولنا . وكان بين الذين افاءوا عليه الرعاية ابن الزكي قاضي القضاة ، الذي كان يقوم على خدمة الصوفي الكبير بنفسه . وكان جو دمشق الحر نسبياً ، اذا قورن بالقاهرة والغرب الاسلامي ، مما راق ابن عربي فحمله على العمل الفكري الجدي — اذ انه اتم وهو في دمشق « الفتوحات المكية » و « فصوص الحكم » .

وقد خلف لنا ابن عربي عدداً ضخماً من المؤلفات تقدر بين ٤٠٠ و ٧٠٠ ، وقد سلم منها ما يربو على المائتين . لا شك ان بعضها يتألف من اوراق مجموعة ، لكن الكثير منها يتكون من مجلدات عديدة ، مثل الفتوحات والفصوص . ولم يكن ابن عربي كاتباً فحسب ، ولكنه كان شاعراً على نحو ما نعرف من شعره الذي رواه صاحب نفح الطيب .

والسؤال الذي يطرح نفسه علينا هو ماذا كان مذهب ابن عربي ، هذا الصوفي الكبير . لقد «جمع ابن عربي في اطار تأملاته الجامع علوم الاسلام ، ولم تكن معرفته الوثيقة مقتصرة على ما وضعه الفقهاء والفلاسفة السنيون والمتصوفة القدماء والمحدثون فحسب ، بل كان مطلعاً على ما عند المخالفين لهم مثل المعتزلة والقرامطة والاسماعيليين . ومذهبه ، على ما فيه من اتساع وتنوع ، يتكشف عن ما عرفته مصادره جمعاء من تأملات وتعابير . ومن ثم فان الاشارات الغامضة تزداد تعقيداً بسبب الصعوبة التي تواجهنا باستمرار ، وهي الصعوبة الناشئة عن استعمال التعابير الفنية المتناقضة » .

ولا تتيح لنا الفسحة القصيرة التي بين ايدينا اكثر من ان نشير الى بعض من آراء ابن عربي المتشعبة ، الا ان الملاحظ التالية قد توضح موقفه من اسلافه وتأثيره في الذين تلوه من المتصوفة .

١ — الله هو الوجود الحق وهو مصدر كل الموجودات . وفي الله وحده يتحد الوجود والكيان .

٢ — الكون له وجود نسبي إما واقعي او تصوري . وهو في الوقت ذاته وجود دائم وعدم موقت . فالوجود الدائم هو في علم الله اما العدم الموقت فهو خارجي بالنسبة لله .

٣ — ان الله منزه ومشبه، ذلك بان التنزيه والتشبيه مظهران اساسيان للحق على ما يدركه الانسان . فالحق الذي يقوم على التنزيه هو الخلق الذي يقوم على التشبيه ، مع ان الخالق يتميز عن المخلوق .

٤ — ان الوجود ، بعيداً عن الله ، يقع بارادة الله ، وهو خاضع للنواميس المتعلقة بالاشياء الكائنة : ويتم ذلك بواسطة الاسماء الحسنى او الآراء الكلية .

٥ — كانت الاشياء في العالم الظاهري ، قبل ان تصبح موجودات ، قائمة في العقل الالهي كاعيان ثابتة ، ومن ثم فقد كانت شيئاً واحداً مع الكيان والوعي الالهين .

٦ — ليس ثمة شيء اسمه اتحاد بالله ، بمعنى ان يكون المرء واحداً مع الله ، ولكن هناك تحقيق للكيان الواقعي وهو ان الصوفي واحد مع الله .

٧ – ان الاصل الخلاق المحيي العاقل في الكون او العقل الاول هو الحقيقة المحمدية المسماة ايضاً حقيقة الحقائق . هذا الاصل يظهر على او في صورة الانسان الكامل .

٨ – كل نبي هو حقيقة الله، والحقيقة هي محمد سيد الانبياء. وهذه الحقائق جميعها تتقمصها الحقيقة المحمدية .

٩ – الانسان الكامل هو مصغر الحقيقة . انه العالم الاصغر الذي يعكس الصفات الكاملة للعالم الاكبر جميعها . وكما ان الحقيقة المحمدية كانت المبدأ الخلاق في الكون ، فان الانسان الكامل هو علة الكون لانه تحقيق لرغبة الله في ان يعلن . ذلك بان الانسان الكامل وحده هو الذي يعرف الله ويحب الله ويحبه الله . فقد صنع العالم من اجل الانسان فقط .

وفي اسلوب ابن عربي كثير من التعقيد والغموض والاضطراب، مما يثير حفيظة القراء ويعجزهم. فهل يكون ذلك نتيجة طبيعية لهـــذا المدى الواسع الذي امتد فيه تفكيره وتجاربه الروحية وتأملاته، ام انه تعمد هذا الاسلوب ليخفي عن معاصريه اموراً ما كان لهم ان يقبلوها ، لكنه كان حريصاً على ان يودعهـــا القرطاس ؟ بعد هذا التنبيه ننقل الى القراء شيئاً مما كتبه ابن عربي .

يقول ابن عربي في «فصوص الحكم»: «واذا كان الامر من هذا

الوجه ممتنعاً ، ولم تكن الشهادة الا في مادة ، فشهود الحق في النساء اعظم الشهود واكمله » [1] . ولعلّ هذه العبارة تعيننا على فهم القصيدة التالية لابن عربي :

مرضي من مريضة الاجفان	عللاني بذكرهـــا عللاني
هفت الورق بالرياض وناحت	شجو هذا الحمام مما شجاني
بأبي طفلة لعوب تهادى	من بنات الخدور بين الغواني
طلعت في العيان شمساً فلما	أفلت أشرقت بأفق جناني
يا طلولاً برامةٍ دارسات	كم رأت من كواعبٍ وحسان
بأبي ثمّ بي غزال ربيب	يرتعي بين أضلعي في أمان
ما عليه من نارها فهو نور	هكذا النور مخمد النّيران
يا خليلي عرّجا بعناني	لأرى رسم دارها بعياني
فاذا ما بلغتما الدار حطا	وبها صاحبيّ فلتبكياني
وقفا بي على الطلول قليلاً	نتباكى بل أبك مما دهاني
الهوى راشقي بغير سهام	الهوى قاتلي بغير سنان
عرفاني اذا بكيت لديها	تسعداني على البكا تسعداني

---

١ — ابن عربي ، محيي الدين ، فصوص الحكم ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٤٦ ، ص ٢١٧ .

واذكرا لي حديث هندٍ ولبنى   وسليمى وزينب وعنان

ثمّ زيدا من حاجر وزَرُودٍ   خبّرا عن مراتع الغزلان

واندباني بشعر قيس وليلى   وبميٍّ والمبتلى غـــيلان

طال شوقي لطفلة ذات نثر   ونظام ومنـــبر وبيان

من بنات الملوك من دار فرس   من أجلّ البلاد من اصبهان

هي بنت العراق بنت امامي   وأنا ضدها سليـــل يماني

هل رأيتم يا سادتي او سمعتم   ان ضدّين قطّ يجتمعان

لو ترانا برامةٍ نتعاطى   أكؤساً للهوى بغير بنان

والهوى بيننا يسوق حديثاً   طيّباً مطرباً بغير لسان

لرأيتم ما يذهب العقل فيه   يمن والعراق معتنقـــان

كذب الشاعر الذي قال قبلي   وبأحجار عقله قد رماني

« أيها المنكح الثريّا سهيلاً   عمرك الله كيف يلتقيان »

« هي شاميّة اذا ما استقلّت   وسهيل اذا استقلّ يماني » [1]

وما اكثر ما كان ابن عربي يشرح شعره ، على نحو ما نرى في القصيدة التالية :

---

١ — ابن عربي ، ترجمان الاشواق ، بيروت ، صادر ، ص ٧٨ — ٨٦ .

ما رحلوا يوم بانوا البزّل العيسا الا وقد حملوا فيها الطواويسا

فيها : بمعنى عليها . البزل : الابل المسمنة . رحلوها : جعلوا رحالها عليها . الطواويس : كناية عن أحبته . شبههم بهن لحسنهن .

المقصد : البزل ، يريد الاعمال الباطنة والظاهرة ، فانها التي ترفع الكلم الطيب الى المستوى الاعلى ، كما قال تعالى : «اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه» . والطواويس : المحمولة فيها أرواحها ، فانه لا يكون العمل مقبولاً ولا صالحاً ولا حسناً الا حتى يكون له روح مزينة عاملة او همة ، وشبهها بالطيور لانهـــا روحانية وكنى عنها ايضاً بالطواويس لتنوع اختلافها في الحسن والجمال .

وعلى هذا النحو سار في شرح سائر الابيات[1] .

والابيات التالية توضح لنا موقف ابن عربي من الحب باسلوبه المعنوي المجرد الجامع :

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبانِ

---

١ ــ المصدر نفسه ، ص ١٥ .

وبيت لاوثان وكعبة طائف
والواح توراة ومصحف قرآن

ادين بدين الحب انى توجهت
ركائبه فالحب ديني وايماني [1]

ووضع ابن عربي كتاب « الاجوبة اللائقة عن الاسئلة الفائقة » الذي تصور فيه نفسه يجيب سائلاً عن القضايا التي تعترضه [2] .

و «الفتوحات المكية» هو تجليات ابن عربي وتفسيره للكون والعقيدة والروح وشؤون الحياة اجمالاً .

ويمكن تقصي المدى الذي تأثر فيه المتصوفة بابن عربي في اكثر من اتجاه واحد . فحتى اولئك الذين لم يقبلوا، او تظاهروا بانهم لم يقبلوا ، نظرته بالوهية الكون كثيراً ما عبوا من معين ابن عربي وخاصة آراءه في الحب . وحتى القاهرة ، التي اقضت مضاجعه اثناء اقامته فيها، وجدت فيما بعد الكثير عنده . ونجد انه في نهاية القرن السابع (الثالث عشر) اصبح جماعة من المتصوفة في القاهرة من اشد المؤيدين لآرائه . وحتى العلماء

١ – ترجمان الاشواق ، ص ٤٣ – ٤٤ .

٢ – ما يزال هذا الكتاب مخطوطاً في مكتبة India office بلندن .

حفزهم ابن عربي على العمل ، لانهم انصرفوا الى نقده ، وما كان ذلك بالامر اليسير . وقد اختلف المفكرون والمؤلفون المسلمون المتأخرون في تقييم آرائه بسبب تنوع ما مر به من التجارب الروحية والتأملات وعمقها .

. . .

العلماء هم حماة الشريعة : هذه هي النظرة الاسلامية التقليدية اليهم . وفي الفترة التي نتحدث عنها كان العلماء اصحاب نفوذ كبير . فقد كانوا يحتلون الوظائف الدينية : فمنهم القاضي والمحتسب والمفتي والمدرس والامام والخطيب والقارىء، وبذلك استطاعوا السيطرة على التعليم ، وكان اليهم النظر في القضاء ، واليهم تعود الفتوى . وكان ثمة عدد كبير من الوظائف الدينية وقفاً عليهم . فكتّاب الانشاء ونظّار المؤسسات المختلفة ، كالبيمارستانات والجيش ، كانوا من العلماء . والادب الرسمي الذي تحدر الينا من تلك الفترة مطبوع بطابعهم .

وكان هناك من العلماء من لم يتولوا ايّاً من وظائف الدولة ، ومع ذلك كانوا يفرضون رأيهم على الدولة ، بسبب ما تمتعوا به من قوة الشخصية والخلق القويم، ولان الجمهور الذي عرف عنهم العلم والاخلاص والحماسة احترمهم وايدهم .

وتكفينا امثلة قليلة للدلالة على ذلك . فقد اصدر الملك

العادل نقوداً جديدة سميت قراطيس، فانتقد اليونيني هذا العمل واتهم العادل بانه كان ينوي غش التعامل بين التجار . فما كان من العادل الا ان الغى القراطيس . وكان سبط ابن الجوزي مستشاراً خاصاً للملك المعظم . وفي سنة ١٢٦٧/٦٦٥ عقد الملك الظاهر بيبرس مجلساً في دمشق دعا اليه العلماء وطلب منهم ان يصدروا فتوى تسمح له بالاستيلاء على اراضي الغوطة ، ولكن الشهرزوري عارض في ذلك على اساس ان السلطان لم يكن له حق في الارضين . ونزل السلطان عند رأي العلماء . وقد تمكن ابن عبد السلام – وهو معاصر للظاهر – من الغاء الاذن ببيع الخمور ، وتقدم السلطان في مبايعة الخليفة ، واصر على ان يبيع الامراء المماليك في سوق الرقيق بنفسه ، وتم له ذلك ، وانفق ما تحصل له على اعمال البر . وفي سنة ١٢٨١/٦٨٠ كان بيع الخمور وبيوت الفسق يسمح بها لمن نال حظوة عند اولي الامر ، ولكن العلماء قاوموها ونجحوا في ابطالها .

وابن تيمية مثل حسن لتبيين اثر العالم المتين الخلق في شؤون الدولة والمجتمع ، على ما يتضح من بضعة حوادث منتزعة من حياته . لما رأى الخطر المغولي المحدق بالبلد سنة ١٢٩٨/٦٩٧ ، تحدث الى الناس في شؤون الجهاد، فكان حديثه اوقع في النفوس من اوامر السلطان . ولما احتل المغول دمشق بقيادة قازان ، كان ابن تيمية الذي حض ارجواش، نائب القلعة ، على وجوب

الامتناع عن تسليمها . وقد ذهب ابن تيمية الى النبك ، بصحبة نفر من اعيان دمشق ، للقاء قازان والحصول على امان لاهل المدينة . وبعد رحيل جيش قازان من دمشق طاف ابن تيمية واتباعه على حوانيت الخمور يكسرون آنية الخمر ويهرقون محتوياتها على الارض ، ويعزرون اصحاب الحانات . وقد رافق ابن تيمية حملتين عسكريتين الى كسروان بلبنان في اوائل القرن الثامن (الرابع عشر) . وقبل معركة شقحب (سنة ٧٠١/ ١٣٠٢) ذهب الى الجيش وتحدث الى الجند عن الوحدة والنصر واستوثق من ان الامراء وغيرهم اقسموا على الاخلاص ، واوضح لهم شرعية قتال المغول ، ولو ان هؤلاء كانوا مسلمين مثل اهل سورية .

قدمنا هذه الامثلة لنوضح الدور الذي كان العلماء يقومون به في الحياة العامة . فاذا اضفنا الى ذلك نشاطاتهم الفكرية ، لا يتولانا العجب اذا نحن وجدنا ان حظهم في ارشاد القوم وتوجيه قضاياه المختلفة كان كبيراً .

وقد كانت دمشق في ايام المماليك تعج بالعلماء ، فقد هاجروا اليها من الجزيرة وبغداد وفلسطين ، وتقبلتهم دمشق مشجعة وافاءت عليهم من خيراتها وامنها ، ومنحتهم الفرصة لينموا اهتمامهم العلمي .

وكانت دمشق في القرن الثامن (الرابع عشر) شديدة العناية بالحديث . وانصرف عدد كبير من المحدثين الى الاحاديث يتوثقون من اسنادها ويصنفونها ويبوبونها ، وخاصة ان مئات من الاقوال كانت الى ذلك الحين قد نسبت ، اما مصادفة او تعمداً ، الى الرسول . وهكذا فان علم الحديث كانت له نهضة على ايدي فئة من ابرع من عرف علم الحديث في تاريخه — مثل الموفق والنووي والذهبي والسبكي وابن التقي وغيرهم . ولما كان علم الحديث لم ينفصل عن غيره من متفرعات الشرع والفقه ، فلم يكن غريباً ان ينبغ واحد في الحديث والفقه على السواء . على انه يتوجب علينا ان نتذكر بهذه المناسبة حقيقة واحدة هامة وهي ان علم الحديث كان دوماً واحداً بقطع النظر عن المذهب او المدرسة التي ينتمي اليها المحدث، بينما كان الفقه يختلف تدارسه باختلاف المذهب . وهذا يوضح لنـــا السبب في ان مدارس الحديث ، سواء في دمشق وفي غيرها ، كانت للجميع ، بينما كانت مدارس الفقه مخصصة لواحد من المذاهب الاربعة .

وكان الحنابلة ذوي نفوذ وقوة واضحين في القرون السابع والثامن والتاسع (الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر) ، وقد كان للهجرتين اللتين ذكرتا من قبل اثر في ذلك : هجرة جماعة ابن قدامة الذين تركوا بيوتهم قرب نابلس واستقروا في دمشق ، ومجيء اسرة ابن تيمية التي جاءت من حران في شمال

سورية . وقد ظهر في بني قدامة عدد من العلماء والدارسين الذين كانت اكبر خدماتهم العلمية جمع الفقه ووضع المصنفات الموسوعية فيه . واسرة تيمية منحت دمشق تقي الدين ابن تيمية (تو ١٣٢٨/٧٢٨) الذي لعله كان اكبر فقيه في ايامه . فهو يمثل الفئة الثانية ، بعد ائمة السنة الاربعة الاوائل ، التي يعود اليها الفضل في اعادة النشاط الى الدروس الاسلامية الشرعية ، وتصنيف بعض ما سبق للفقهاء ان قدموه من آراء هامة ، وتطبيق المنطق الحديث على بعض القضايا التي لم تكن قد خطرت لاسلافهم من قبل. وقد يكون في الاشارة الى ابن تيمية وصحبه على انهم مصلحون بعض المبالغة ، ولكن اثرهم ، وخاصة اثر ابن تيمية نفسه ، يمكن ملاحظته في آراء المصلحين من المسلمين حتى يوم الناس هذا .

وكان التأريخ موضع اهتمام وعناية في هذه الفترة ، وقد صنفت فيه كتب قيمة . وقد كان الاخباريون الاوائل في الاسلام مغلقين على انفسهم بعض الشيء، وكان الاسلام وتاريخه هو كل ما يهمهم ، وقلما عنوا بمن سبقهم من الاقوام او حتى بمعاصريهم من الامم الاخرى . اما مؤرخو العصر المملوكي فقد كانوا منفتحين . كانت كتاباتهم عن الاسلام والبلاد الاسلامية الا انهم كانوا قد ارتبطوا بجماعات اخرى في الشرق والغرب وكونوا معها علاقات وثيقة وتعاملوا معها بشكل واسع . وقد جاء مؤرخو المماليك بعد ان

كان عدد كبير من الجغرافيين والرحالين قد درسوا اجزاء العالم وكتبوا عنها . فلم يكن بامكان هؤلاء المؤرخين ان يتجاهلوا الاقوام الاخرى حتى ولو ارادوا ذلك . فضلاً عن ان بعضهم بذلوا جهودهم لتدوين تاريخ الحروب الصليبية — اكبر نزاع مسلح بين المسيحية والاسلام. ولسنا نعنى الآن بموقف المؤرخين، ولكن المهم انهم تناولوا الموضـــوع بالكتابة . كانت آفاقهم اوسع . والذي نراه هو ان مؤرخي القرن الثامن (الرابع عشر) هم الذين ارشدونا الى كتابة التاريخ : لقد كان طليعتـــه ابن خلدون . وقد قامت دمشق ومؤرخوها بدور كبير في هذا الاتجاه .

وقد ازدهرت في الفترة التي نتحدث عنها ايضاً المؤلفات الموسوعية التي شملت فنون العلم والمعرفة على انواعها : ففي الفقه وضع الموفق « المغني » ، وفي التاريخ ظهر ابن الاثير وابن الفرات والذهبي ، وفي الموسوعة بالذات صنف ابن فضل الله العمري كتاب « مسالك الابصار » . وهذا الكتاب ، وسنعود اليه فيما بعد، في عشرين جزءاً فيه الجغرافية والتاريخ والجغرافية السياسية والادب على نحو ما عرفها العصر. فضلاً عن انه كان، في زمنه ، دليلاً رسمياً للذين يعملون في وظائف الدولة .

ولعلّه من الافضل لتوضيح نواحي الحياة الفكرية في ذلك

الوقت ان نضع امام القارىء تراجم مقتضبة جداً لبعض العلماء والفقهاء الذين كانت حياتهم نموذجاً للعصر ، اذ ان ذلك من شأنه ان يدخلنا الى الجو الذي عاش فيه هؤلاء الناس .

كان الموفق في العاشرة من عمره لما هاجرت اسرة بني قدامة من فلسطين واستقرت في دمشق . وكان ابوه اول معلميه ، ثم أخذ العلم عن بعض علماء دمشق . ورحل بعد ذلك الى بغداد والموصل ومكة حيث لقي العلماء واخذ عنهم ، وكان قد بلغ الثلاثين من عمره لما استقر في دمشق نهائياً ، وانصرف الى التعليم والتأليف حتى وفاته سنة ١٢٢٣/٦٢٠ . وكان عدد كبير من الطلبة يحضر دروسه ، بينهم جماعة بلغوا من العلم درجات عالية . كان الموفق حنبلياً واشتهر بالفقه ، وخلف لنا «المغني» وهو كتاب في الفقه في عشرة مجلدات . وميزة الكتاب هو أن مؤلفه كان يقارن فيه بين نظرة الحنابلة وآراء غيرهم من اهل السنة ، ومن ثم فالقارىء يجد فيه الفقه المقارن . وقد قيل عن الموفق انه كاد ان يبلغ مرتبة الاجتهاد .

وسنتحدث عن ابن تيمية ، وهو فقيه العصر غير منازع ، فيما بعد . اما الآن فلنشر الى فئة اخرى من الذين كان لهم باع في ميادين العلم الاخرى : من هؤلاء الذهبي المؤرخ (تو ١٣٤٨/٧٤٩) الذي صنف « تاريخ الاسلام » في سبعين قسماً

خص كل قسم منه بعقد من السنين . وقد كان واسع المعرفة ضليعاً في علمه بالمصادر بحيث ان كتابه يمكن اعتباره من نوع الموسوعات التاريخية . وقد خلفه في كتابة التاريخ ابن كثير صاحب « البداية والنهاية » الذي وضعه في اربعة عشر جزءاً . وقد لجأ الاثنان – الذهبي وابن كثير – الى تلخيص من سبقهما في كتابة تاريخ القرون الاولى ، لكنهما كانا يحسان ، وهمـــا يدونان اخبار زمانهما، انهما يؤرخان لفترة فيها الكثير من الحركة والنشاط ، ومن ثم فقد انصرفا الى عملهما باهتمام ، فخلفا لنا ثروة تاريخية لا مثيل لها، وخاصة ابن كثير الذي يرسم لنا صوراً حية للاحداث والماجريات بحيث نستطيع مرافقته يوماً فيوماً.

ويعتبر ابن فضـــل الله العمري (تو ١٣٤٨/٧٤٩) مؤلف « مسالك الابصار في ممالك الامصار » موسوعي دمشق في عصر المماليك . ولقد كان ابوه وجده من قبل موظفين في الدولة المملوكية، وكانا متصلين بتنظيم البريد خاصة . وقد ولد العمري في دمشق حيث سمع العربية والفقه والحديث وتولى منصب القضاء فيها . واخيراً تأسى خطوات والده وجده فتوظف في ديوان الانشاء ، وهذا ما حفزه على وضــــع مؤلفه الضخم « المسالك » . والكتاب فيه بحث عن جغرافية الارض ، الا انه عندما يتكلم عن الجغرافية السياسية فانه يقصر بحثه على بلاد الاسلام (وهو يأمل ان يتحدث عن بـــلاد الكفار في مناسبة

تالية) . على ان الاكتفاء بهذا القول عن الكتاب فيه اجحاف ، ذلك بان المؤلف يزودنا بالاخبار التاريخية المعاصرة وبالمعلومات المتعلقة بالادارة والعلاقة بين السلطان ونوابه وامرائه . ويسهب في تبيين الامور المتعلقة بالضرائب وموارد الدولة والمكافآت وحق الانتفاع بالارض وما الى ذلك . ووصفه للمدن ، وخاصة القريبة ، واف ودقيق . واسلوبه يتفق مع روح العصر ، الا انه لا يضحي بالدقة في سبيل زخرف القول . وفي الكتاب عدد كبير من المراسيم والاوامر السلطانية التي صدرت في اوقات مختلفة ، وان لم يكن هو الكتاب الوحيد الذي يوردها . ولا سبيل الى فهم الادارة المملوكية دون الاطـــلاع على كتاب المسالك هذا .

وابن طولون الصالحي ولد في اواخر عصر المماليك وتوفي سنة ٩٥٣/١٥٤٦ ، لذلك لم يتمتع برعايتهم مدة طويلة ، اذ جاء موته بعد زوال امبراطوريتهم بنحو ثلاثة عقود من السنين . ومع ذلك فهو من اهل ذلك العصر لانه ولد قبل الاحتـــلال العثماني (٩٢٢/١٥١٦) باثنتين واربعين سنة . ولم تكن مؤلفات ابن طولون شيئاً مبتكراً ، الا انه عالم من علماء تلك الفترة . فقد قرأ القرآن وسمع الفقه والحديث ودرس التصوف (وهو امر غير مألوف الا اذا كان المقصود الرد على المتصوفة) واللغة والتاريخ والرياضيات والفلك والهندسة والطب . والكتب التي

وضعها ، ويبلغ عددها سبعمائة ، شملت هذه الموضوعات كلها . كان ابن طولون نموذجاً لعالم العصر — كان ذكياً فتعلم كل شيء رآه ، وكان قادراً على هضم هذه المعرفة ، وتمكن من كتابتها باسلوب مقبول . على انه لا يبدو انه وعى مشكلات الفترة وقضاياها اذ انه لم يبد فيها رأياً خاصاً . الا ان الانصاف يقضي بأن نقول بأن ابن طولون لم يكن الوحيد من مفكري عصر المماليك الذين لم يعنوا الا بالتعلم والتدريس على الطريقة التقليدية المألوفة .

على ان الرجل الذي ارتفع الى مستوى القضايا وحاول معالجتها بمعرفة وصراحة ومواجهة المعية هـو ابن تيمية (٦٦١/١٢٦٣ — ٧٢٨/١٣٢٨) . ولم تكن كتابته هامة فحسب ، بل ان حياته كانت مثالاً يحتذى ، فلم يكن يأبه الصعاب متى اقتنع بانه على حق . ولذلك فاننا نود ان نتحدث عنه بشيء من التفصيل .

كان احمد ابن تيمية قد بلغ السابعة من عمره لما رحلت اسرته من حران في الجزيرة الى دمشق ، خشية تكرر الهجمات المغولية . وقد اصبحت دمشق في القرن السادس (الثاني عشر) مركزاً للفقه الحنبلي ، الامر الذي تقوى بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦/١٢٥٨ . ولما كانت أسرة احمد حنبلية ، فقد اتيح له من

اول الامر ، ان يأخذ العلم عن خير المدرسين الحنابلة في تلك الفترة . فالمدارس الحنبلية كانت قد دربت فقهاء ومتكلمين ومفسرين ومحدثين يشار اليهم بالبنان . وكان علماء الحنابلة يولون الخطب في المساجد والمدارس والزوايا عناية كبيرة ، وكان ابن تيمية ينمو مع هذه الامور كلها كأنه جزء منها . ولما كان في الثانية والعشرين من عمره خلف اباه ، وكان قد توفي في السنة السابقة ، في التدريس ، وكان هـــذا اعترافاً بمقدرته . وذاعت شهرة دروسه لا بين السنـّة فحسب ، ولكن بين الشيعة الذين حضروا دروسه .

وكان العصر الذي عاش فيه يسيطر عليه المذهب الاشعري ومسحة من التصوف مع استعداد تام لقبول النظرة التقليدية في الشؤون العامة . وكان ابن تيمية خصماً لهذه جميعها ، وقد اثار عليها ، منذ اول الامر ، حرباً عواناً . وهذا هو الذي جعله يعتبر « مصلحاً » .

وقد قام بدور فعال في حياة مدينته وجماعته . وقد اثارت « قسوته » في مهاجمة خصومه كثيراً من ردود الفعل العنيفة . فاتهمه هؤلاء بالعنـــاد وطلبوا ان تنزل به العقوبة . ومن ثم فقـــد صرف الرجل سنوات من حياته في سجون القاهرة ودمشق ، حتى ان السنوات الاخيرة من حياته قضاها في قلعة دمشق وتوفي فيها .

لم يكن ابن تيمية عالماً يكتفي بالتعليم والتصنيف ، بل كان ايضاً ، مثل عدد كبير من الحنابلة عبر التاريخ ، متفاعلاً مع بيئته . فقد اخذ على عاتقه ان يتأكد من ان الناس ، كبيرهم قبل صغيرهم ، كانوا يحافظون على الآداب الاسلامية في تصرفهم. هذا كان من واجبات المحتسب ، لكن ابن تيمية كان (بتوظيفه نفسه بنفسه) محتسباً فعالاً نشيطاً .

وخلف لنا ابن تيمية عدداً كبيراً جداً من المصنفات التي تعالج قضايا مختلفة . وليس من الممكن ان نتحدث عن كتبه جميعها في هذه العجالة ، لكننا نرى لزاماً علينا ان نضع بين ايدي القارىء بضعة من آرائه ومواقفه الاكثر اهمية .

فقد بحث في رسالته الواسطية ، وفي غيرها ، العقيدة الاسلامية التي كان يرى انها تأذت من الاشعرية والتصوف والتقليد. فقد قبل بعض المسلمين القول بان الله ذو صفات جثمانية ، بانين ذلك على تفاسير مجازية لبعض آيات جاءت في القرآن . وقد عاد ابن تيمية ، ودعا الناس الى ان يعودوا مثله ، الى القرآن الكريم والسنة النبوية لفهم العقيدة فهماً عميقاً دقيقاً صحيحاً اصيلاً ، تاركين غير ذلك من الوسائل والآراء التي تسربت الى الاسلام من الخارج كالتمثيل والتجسد والتشبيه . ولم يكن ليقبل بما جاء به المتصوفة من تطرف في الرأي اذ قالوا بالحلول والاتحاد . فمثل هذا القول كان ، في نظره ، شركاً لا يقبله

الاسلام ، ومن ثم كان هجومه العنيف على ابن عربي ، مع ان ابن تيمية لم يهاجم التصوف جملة . الا ان المتصوفة نقموا عليه موقفه منهم ورفعوا امره الى السلطان في القاهرة ، ونجحوا في ان يزج به في السجن .

وكان ابن تيمية حرباً على المقلدين. ذلك ان المألوف في ذلك الوقت هو ان الفقهاء كانوا يتقيدون ، في بحثهم امور الشريعة ، بما جاء به أئمة السنة الاربعة ، اي انهم لم يكونوا يبدون رأياً خاصاً قط . ذلك ان باب الاجتهاد كان قد اقفل قبل نحو خمسة قرون . ومع ان الحنابلة لم يقبلوا بهذا تماماً ، الا انهم راعوا هذا التقليد في بعض نواحيه . وكان ابن تيمية يرى ان الاجتهاد امر اساسي للجماعة الاسلامية واستمراره لازم . وقد اوضح موقفه هذا في عدد كبير من الفتاوى ، التي اظهر فيها اصالة في الرأي والاسلوب مقتصراً في جدله على الاستشهاد بالقرآن والسنة ، والرجوع الى الاجماع على ما عرف في ايام الصحابة .

كان الفقهاء يعتمدون الاجماع والقياس والرأي احياناً في تفسيرهم للامور الشرعية . وقد تحدى ابن تيمية هذه كلها وقال بان اجماع العلماء يمكن اعادة النظر فيه ، ومن ثم فان آراء أئمة المذاهب السنية الاربعة يجب ان ينظر فيها من جديد متى سنحت فرصة لذلك ، على ان يعتمد على الكتاب والسنة .

ولم يكن ابن تيمية وحيداً في هذا الموقف ، بل ان ابن عبد

السلام وابن قيم الجوزية لم يريا قبول آراء الائمة الاربعة قبولاً مطلقاً . وقد حدد ابن عبد السلام موقفه اذ لم يسمح للجمهور بالاجتهاد ، بل قصره على اهل العلم . وكان ابن قيم الجوزية يقول بان الفقه يجب ان يكون عملية نامية متطورة كي تسترشد به الدولة للوصول الى الوسائل التي تعينها على القيام بمصلحة الامة .

. . .

وكان لابن تيمية مشاركة في عدد من القضايا مع غيره من علماء دمشق . ولعل عرضاً موجزاً لبعض هذه المشكلات التي بحثوها يوضح لنا مدى فعاليتهم ونشاطهم [١] .

تقديس الاراضي المقدسة (فلسطين) :

كان اهتمام الناس بالاراضي المقدسة من الموضوعات التي احتلت مكاناً مرموقاً في المناقشات الدينية في عصر المماليك . والكتب الثلاثة التالية التي وضعت في هذه الفترة تظهر مدى استئثار هذه القضية بتفكير العلماء ، وهي : « ترغيب اهل الاسلام بسكنى الشام» لعز الدين ابن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء ، و « مثير الغرام في زيارة القدس والشام » لشهاب الدين المقدسي ، و «مثير الغرام في زيارة الخليل عام» للتدمري الخليلي.

---

١ – راجع للمترجم كتاب Urban Life in Syria under the Mamluks. Beirut, American University of Beirut.

والفكرة التي يتناولها الكتاب الاول ، وهو مثل لكتب كثيرة في الموضوع ، هو ان الشام (اي ديار الشام) – ودمشق خاصة – بلد مقدس بالنسبة للمسلمين وذلك بسبب الاحاديث النبوية المتعددة المتعلقة بها . وقد دفن عـــدد من الصحابة في سورية ، ومن ثم فان البلاد تشغل مكانة هامة في الاسلام ، واذن فانه يتعين على المسلمين الدفاع عنها . والمثير الاول يضع النبرة على القدس ، بينما يهتم الثاني بالخليل .

ويبدو ان تقديس الاراضي المقدسة كان قد اصبح في القرن السابع (الثالث عشر) قوياً الى حد ان ابن تيمية وجد انه من المصلحة ان يفند مثل هذه الفكرة ، التي كان يعتبرها امراً فاضحاً . لذلك فانه صنف كتاباً سماه : « قاعدة في زيارة بيت المقدس» . وحججه وتفنيده تتلخص فيما يلي : (١) ان المسجد الاقصى يعتبر ثالث مسجد في الاسلام من حيث اهميته ، اما مسجد الخليل فلا يعتبر مساوياً له . (٢) والمسجد الاقصى هو مكان لعبادة الله ، مثل اي مسجد آخر ، لكن زيارته لا تغني المرء عن الحج الى مكة . (٣) ليس ثمة حرم مرتبط باي من مسجدي القدس او الخليل، مع ان لمسجد مكة حرماً خاصاً به. (٤) زيارة المسجد الاقصى امر عادي ويمكن ان تتم في اي وقت، لكن لا يمكن قط اعتبارها حجاً . (٥) لا يمكن اعتبار زيارة لعسقلان وعكا وطرسوس زيارة دينية لان هذه الاماكن هدمت

مساجدها . وقد جرب ابن تيمية ، بالاضافة الى امور اخرى ، ان يبين ان كثيراً من الاحاديث التي يقبلها الناس على انها صحيحة ليست هي كذلك، وانما هي من وضع القـُصّاص .

علاقة الانسان بالله :

كانت علاقة الانسان بالله من المسائل التي كثر القول فيها في ذلك العصر . وكان ثمة اتجاهان : الاول هو التفسير الصوفي ، وهو الذي يجذب اليه العدد الكبير من الاتباع ، والذي لفت نظر العلماء لما اخذ المتصوفة تنظيم انفسهم طرقاً . وكان الاتجاه الآخر هو الاتجاه السني ، الذي كان يحتضنه الاشاعرة والمدارس الحنبلية الحديثة العهد ، والتي كانت تتطور بسرعة بين القرن السادس (الثاني عشر) والقرن الثامن (الرابع عشر) .

كان التفسير الصوفي يقول بالحلول والاتحاد ، وهما فكرتان نشأتا مع الوقت وتطورتا بتأثير عدد من المفكرين . وقد اضيف اليهما ، في القرن السابع (الثالث عشر) ، وحدة الوجود . وقد تشدد المتصوفة في اعتبار المعرفة طريقاً لادراك الله . وقد كان الكثيرون منهم ، ان لم يكن كلهم ، مستعدين لقبول اساليب غريبة للعبادة، او التخلي عن بعض ما هو مفروض من العبادات: فقبلت الطرق الصوفية الذكر والسماع طريقاً للمعرفة . وقد مر بنا ان الصوفي الاول في هذه الفترة كان ابن عربي ، لذلك لما

اخذ ابن تيمية نفسه بمقارعة التصوف اتخذ ابن عربي هدفاً لحملاته .

اما الاتجاه السني فقد حافظ على مستوى رفيع في الاخلاق والتفكير ، ورفض قبول اي تجديد او ترتيب قد ينتقص من صفاء العقيدة الاولى . وقد كان علماء السنة ، سواء في تفنيدهم للصوفية او في اعادة النظر في بعض الامور المتعلقة بالاسلام ، نشيطين جداً . ولعل ابن تيمية ، على ما ذكرنا ، كان اكبر قادة الفكر السني (الحنبلي) في ذلك العصر .

كان ابن تيمية ومعاصروه يرون ان الاسلام هو الدين الحق ، ومن ثم فانه كان يتعين على المسلم ان يؤمن بالله وبرسوله . والمسلم يرجع الى القرآن والسنة لتفهم العقيدة لان جميع الامور المتعلقة بالايمان والعمل موضحة فيهما بما لا يترك زيادة لمستزيد . والايمان الذي يضمن للمسلم النجاة هو الاعتقاد بالله وحـــده وبرسوله . واصرار ابن تيمية على ان الايمان وحدة لا تتجزأ امر يلفت النظر ، اذ ان هذه النظرة قبلت العبادة على ما جاءت عليه في مصدري الاسلام الاساسيين فقط . يضاف الى ذلك ان الانسان يجب ان يسلم امره الى الله ، وان تسليمه يجب ان يكون تاماً ، شأنه في ذلك شأن ايمانه .

كان الله يوحي الى الانسان بواسطة الرسل ، ومحمد هو خاتم

الرسل . واذن فعلى الانسان ، عندما يطلب العون من الله ، ان يسأل النبي شفاعته ، لكن ابن تيمية عارض التردد على المزارات وزيارة قبور الاولياء على اساس ان مثل هذه الاماكن واولئك الرجال لهم قوى خارقة ، او انهم يمنحون بركات خاصة او انهم يستطيعون ان يتوسطوا بين الانسان وخالقه ، وحمل على مثل هذه الزيارة حملات شعواء ، وبذل الكثير من الجهد ليظهر للناس ان الله لم يهب مثل هذه القبور مكانة متميزة او قوة خاصة .

الانسان والامة :

كانت الامة الاسلامية هي الامة في نظر ابن تيمية، وكان التعاون بين افراد الامة هو اساس العمل المشترك ، فكان يترتب على المسلم ان يعين الآخرين على فعل الخير وتجنب الشر واحقاق الحق . وكان ابن تيمية يعتبر الامة شيئاً عضوياً وان لها اهدافاً وغايات معروفة . وغرض الامة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومعنى هذا ان الامة كانت تحقق ارادة الله .

وكان على الامة ، رغبة منها في تحقيق غاياتها ، ان يكون لها تنظيم دولة هو الامامة التي يتوجب عليها ، وعلى ما فيها من موظفين وهيئات ، ان تذعن لمبادىء الاسلام . ويترتب عليها

ان يكون هدفها ايضاً الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويجب ان تكون دولة عادلة لان الله لن يؤازر دولة ظالمة ، ولو ان هذه قد تكون دولة مكونة من مؤمنين . والدولة التي كان ابن تيمية يفكر فيها هي دولة دينية ، لكنه كان يريدها ، على ما يرى هنري لاوست، دولة واجبها ان تتعاون مع الامة وتخدمها، لا ان تكتفي بان تقبل خضوعها فحسب . على ان الخضوع كان لازماً لتحقيق الهدف الذي وجدت الامة من اجله. وعلى الدولة واجب ادبي في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للامة ، اذ يتوجب عليها ان تحق الحق ، وتنشر الامن وتتأكد من ان الناس قاموا بفروضهم الدينية . وعليها ، بالاعتماد على المحتسب ، ان تستوثق من صحة المعاملات وان تحمي الناس من الغش والتدليس .

اما من الناحية الاقتصادية فقد كان على الدولة ان تحمي الامة ضد الاحتكارات وتدليس التجـــار . ومراقبة الاسعار كانت جائزة عندما يكون المقصود منها مساعدة الناس في الحصول على حقهم — في ايام القحط والعوز . وقد قبل ابن تيمية ان تتدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية للمجتمع لضمانة حاجاته فقط . واذن فقد كان جائزاً ان يكلف البعض القيام باعمال تجارية او زراعية او في حالة الحرب على ان يكون ذلك لقاء تعويض ، وعلى ان لا يتأذى احد بسببها .

ولم يكن ابن تيمية يحبذ الاقتصاد الفردي ، لان الفرد لم

يكن السيد المطلق لتصرفه وافعاله : بل ان قيامه بعمل ما كان خاضعاً لتعاليم الاسلام . وكان على الدولة ان تتأكد من ان هذه القوانين تراعى في الاعمال .

الجهـاد :

قامت امبراطورية المماليك والصليبيون لا يزالون يحتلون بعض اجزاء المنطقة ، وكان لا بد من شن الغارات ضدهم الى ان يخرجوا . على ان خطر هجوم اوروبي بجدد كان قائماً في اذهان الناس ، والواقع انه كان ثمة اكثر من محاولة واحدة نذكر منها على سبيل المثال الحملتين الفاشلتين على الاسكندرية ونيكوبوليس . وكانت بعض عناصر السكان تتهم بمساعدة الاوروبيين . وكانت الدولة تعتبر هؤلاء خونة ، ويجب ان يطالهم العقاب اما افراداً او جماعات . وقد هاجم المغول سورية وجوارها مرات عدة ، وكان القتال يتراوح بين النصر والخذلان بدرجات مختلفة . وقد وجد هناك من يعطف على المغول من ابناء البلاد . فهل يعتبر هؤلاء خونة ايضاً ؟ وعلى اي اساس ؟

كانت هذه القضايا المتعلقة بحروب تلك الفترة موضع بحث ونقاش. كان الاوروبيون مسيحيين ولذلك لم تكن الدولة حرة

في تسيير حملات ضدهم ، بل كان في واقع الامر يتوجب عليها ان تقوم بالجهاد ضدهم على يد السلطان . لكن المغول كانوا قد اسلموا . فهل كان القتال ضدهم عملاً مشروعاً ؟ لقد رأينا ان ابن تيمية قاد الحملة ضدهم بنفسه ، ولو لم يكن الرجل مقتنعاً بصواب رأيه لما قام بهذا العمل . وقد كان رأيه في الموضوع واضحاً كل الوضوح . كان المغول مسلمين ، ولكن تصرفهم الوحشي مع المسلمين في مـــدن العراق وشمال سورية وقراهما وضعهم في مصاف المجرمين العاديين : ومن ثم فقد حق عليهم القتال . وكان اكثر من نصرهم من الشيعة ، ولم يكن ابن تيمية معجباً بهم . ولذلك فقد رافق حملة ارسلت للهجوم عـــلى معاقلهم في جبال سورية ولبنان .

. . .

لقد ترك علماء عصر المماليك اثراً لا في معاصريهم فحسب بل تعداهم الى الاجيال التي تلت . وفي هذا المجال يبدو اسم ابن تيمية في طليعة المصلحين في ذلك العصر ، وذلك بسبب نشاطه ودقة تفكيره وصفاء اسلوبه (بالنسبة الى الفقهاء وأهل الشرع) وصراحته . وقد كان اتباع ابن تيمية كثيرين ، ومن ابرزهم ابن قيم الجوزية (توفي سنة ١٣٥٠/٧٥١) . وممن تأثر بآراء ابن تيمية من غير الحنابلة نذكر الذهبي وابن كثير وابن حجر ،

وهم ثلاثة من كبار المؤرخين العلماء . وقد كان تأثير ابن تيمية في مصر كبيراً حتى في حياته .

ومن الجدير بالتذكر انه لما سمع بعض علماء بغداد ، العاصمة التي دمرها هولاكو قبل ذلك بسبعين سنة، بان ابن تيمية معرض للسجن في قلعة دمشق كتبوا الى السلطان الناصر يرجونه في قضية شيخ الاسلام . وقد جاء في رسالتهم انه لما بلغ المشارقة واهل الولايات العراقية الشرقية بان شيخ الاسلام تقي الدين احمد بن تيمية مسجون ، حز ذلك في نفوسهم . ولما ادرك علماء تلك النواحي مدى المأساة كتبوا الى السلطان مؤيدين الشيخ في فتاواه ، مشيدين بعلمه وفضله ، مدافعين عن دينه وحرصه على نصح الامراء المسلمين بما يتوجب عليهم نحو الاسلام .

ولما فتح العثمانيون سورية ، ضعف شأن الحنابلة ومدارسهم، لان الاتراك كانوا حنفيين . وقد ظل ابن تيمية مدة طويلة منسياً في بلده . ولعل المتصوفة، الذين مال العثمانيون اليهم (فقد بنى سليم ، فاتح سورية ، زاوية حـــول ضريح ابن عربي في دمشق) اسهموا في ذلك . الا ان بلاداً اخرى اخذت نفسها بالتعرف الى ابن تيمية ودرس آرائه واتباعه . ففي اواسط القرن الثامن عشر قام محمد بن عبد الوهاب بدعوته في نجد ، وكانت اصلاً تسير على خطوات ابن تيمية . وبعد ذلك بقرن تقريباً قام السيد محمد بن علي السنوسي بحركته الاصلاحية في

ليبيا – وأثر تعاليم ابن تيمية واضح في الدعوة السنوسية . وفي مطلع القرن الحالي اعلن السيد رشيد رضا صاحب المنار ، واحد كبار السلفيين ، انه من اتباع ابن تيمية .

واذن فقد وضع ابن تيمية الاطار الاول للاصلاح الاسلامي والاحياء الديني ، الامر الذي قبله دعاة الاصلاح وجماعة الاحياء منذ ذلك اليوم .

المصادر

- ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله
تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ،
باريس ، المطبعة الاهلية ، ١٨٧٤ - ١٨٧٩ (٤ اجزاء)

- ابن تغري بردي ، يوسف
النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة ،
القاهرة ، ١٩٦٣ (١٢ جزءاً)

- ابن تيمية ، تقي الدين
بغية المرتد ،
القاهرة ، ١٣٢٣ ه

- ابن تيمية ، تقي الدين
الحسبة في الاسلام، (ضمن مجموعة الرسائل الكبرى)
القاهرة ، ١٣٢٣ ه

- ابن تيمية ، تقي الدين
رسائل ومسائل
القاهرة ، ١٣٤٦ ﻫ

- ابن تيمية ، تقي الدين
فتاوى
القاهرة ، ١٣٢٥ - ١٣٢٩ ﻫ (٥ اجزاء)

- ابن تيمية ، تقي الدين
كتاب السياسة الشرعية
القاهرة ، ١٣١٦ ﻫ

- ابن تيمية ، تقي الدين
مجموعة الرسائل الكبرى
القاهرة ، ١٣٢٣ ﻫ

- ابن جبير
رحلة ابن جبير (حسين)
بيروت ، صادر ، ١٩٦١

- ابن طولون ، محمد بن علي
تاريخ الصالحية
دمشق ، ١٩٤٩ (جزءان)

ـ ابن عربي ، محي الدين
ترجمان الاشواق
بيروت ، صادر ، ١٩٦٣

ـ ابن عساكر ، علي بن الحسن
تاريخ مدينة دمشق
دمشق ، ١٩٤٥

ـ ابن الفرات ، محمد
تاريخ ابن الفرات
بيروت ، ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ ج ٨ و ٩

ـ ابن فضل الله العمري
مسالك الابصار في ممالك الامصار
القاهرة ، ١٩٢٣ ج ١

ـ ابن قدامة ، موفق الدين
المغني
القاهرة ، ١٣٤٦ ـ ١٣٤٨ ﻫ (١٢ جزءاً)

ـ ابن كثير ، اسماعيل بن عمر
البداية والنهاية
القاهرة ، ١٣٥٨ ﻫ ج ١٤

– ابو شامة ، عبد الرحمن
تراجم رجال القرنين السادس والسابع (ذيل كتاب الروضتين)
القاهرة ، ١٩٤٧

– ابو الفدا ، اسماعيل بن علي
تقويم البلدان ، (تحقيق رينو دي سلان)
باريس ، ١٨٤٠

– ابو الفدا ، اسماعيل بن علي
المختصر في اخبار البشر
استانبول ، ١٢٦٨ ه

– البدري ، عبدالله
نزهة الاعلام في محاسن الشام
القاهرة ، ١٣٤١ ه

– زاترستن ، ك. ف. (محقق)
تاريخ سلاطين المماليك
ليدن ، ١٩١٩

– الشيزري ، عبد الرحمن
نهاية الرتبة في طلب الحسبة
القاهرة ، ١٩٤٦

– الظاهر ، خليل
زبدة كشف الممالك ، (تحقيق رافيسو)
باريس ، ١٨٩١

– القلقشندي ، شهاب الدين
صبح الاعشى
القاهرة ، ١٩١٣ – ١٩١٤ ج ١٤

Afifi, A. E., « The Mystical Philosphy of Muhyid Din Ibn ul 'Arabi », Cambridge, 1939.

Arberry, Arthur J., « Sufism », London, 1950.

Benjamin of Tudela, « The Travels of Rabbi Benjamin, In Early Travels in Palestine », (ed. by Th. Wright), London, 1848.

Brocquiere, Bertrandon de la, « The Travels of Bertrandon de la Brocquiere », (ed. by Th. Wright), London, 1848.

Ecochard, M. and Claude Le Cœur, « Les Baines des Damas », Beirut, 1940.

Frescabaldi, Leonardo and others, « Visit to the Holy places of Egypt, Sinai, Palestine and Syria in A. D. 1384 », Jerusalem, 1948.

Gaudfroy-Demombyne, M., « La Syrie a l'epoque de Mamlouks d'apres les Auteurs Arabes», Paris, 1923.

Gibb, Sir Hamilton, « Arabic Literature », Oxford, 1963 (2nd ed.).

Laoust, Henri, « Essai sur les Doctrines Sociales et Politiques de Taki-Din Ahmad B. Taymiyya », Cairo, 1939.

Niccolo of Poggobonsi, « A Voyage Beyond the Seas », Jerusalem, 1945.

Sauvaget, Jean, « Esquisse d'une Histoire de la ville de Damas », « Revue Etudes Islamiques », 1934.

Smith, Margaret, « Readings from the Mystics of Islam », London, 1950.

Terresse, Rene, «L'Irrigation dans la Ghouta de Damas», « Revue Études Islamiques», 1929.

Ziadeh, Nicola A., « Urban Life in Syria under the Early Mamluks », Beirut, 1953.

فهرست

أ

ب

ث

ج

ح

خ

د

ذ

ر

ز

س

ش

ص

ض

غ

ف

ق

ك

ن

فهرست المحتويات

ف. ب. (١٦٢)

١٩٦٦

هذا الكتاب

تعتبر دمشق من أقدم مدن العالم . ولقد كانت منذ أيام الآراميين في الألف الثالث قبل الميلاد ، ملتقى الطرق التجارية في منطقة الشرق الأوسط ، كما كانت مطمح انظار الفاتحين من آشوريين وكلدانيين وفرس وإغريق وروماني وبيزنطيين .

وعرفت دمشق ، قبل الفتح العربي وبعده ، فترات تألقت فيها عظمتها . وإحدى هذه الفترات اللامعة تلك التي عرفتها تحت الحكم المملوكي . والكتاب يروي قصة هذه المدينة العظيمة في تلك الفترة : في حياة اهلها اليومية ، وتجارتها ، وصناعتها ، ومحاكمها ، وحكومتها ، ومدارسها ، ومذاهبها الدينية والفلسفية ، وملاعبها ، وأسواقها ، وكنائسها ، ومساجدها .

كتاب جدير بالقراءة

مكتبة لبنان